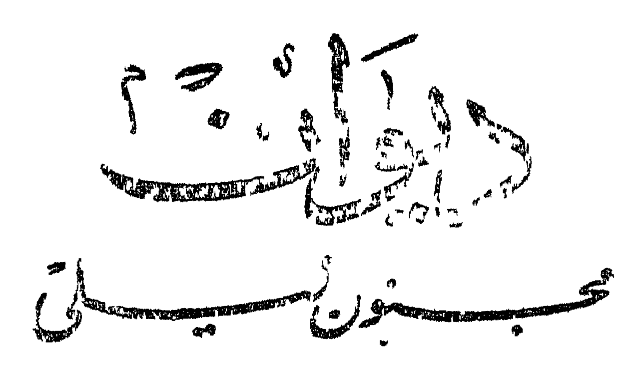


[illegible] العامرى

[illegible] ابنة عمه

ليلى العامرية

هي قصة الحب العربية الخالدة التي تصور لك الحب العذري الطاهر

[illegible] تصوير [illegible] والإخلاص [illegible]

[illegible] أحلى [illegible]

[illegible]

[illegible]

مجنون ليلى

كان فى زمن خلافة عبد الملك بن مروان رجل من أهل المفاخر وأصحاب المناصب والمآثر يقال له الملوح بن مزاحم ، وكان من سادات بنى عامر وله من الأولاد الذكور ثلاثة أقمار كأنهم البدور وكل بالأدب مذكور ومشهور ، ومنهم قيس وهو صاحب هذا الديوان الذى اشتهر بالعشق وحسن السريرة وكان أصغر إخوته عمراً وأعلاهم همة وأرفعهم قدرا ، وأفصحهم كلاماً وأجودهم نظما ونثراً وأعلمهم بالأدب وأخبار العرب وكان مع هذه الأوصاف جميل المنظر عالى الهمة فصيح الكلام طويل القوام كأنه البدر التمام ، حافظ زمام الاحتشام قد نطق بالشعر وهو ابن سبعة أعوام وكان أعز أخوته عند أبيه نظراً لأوصافه وحسن مساعيه لأنه قد حاز جميع الصفات البديعة و حبيبته هى ليلى بنت المهدى تتصل بنسبه فى كعب بن ربيعة وكنيتها أم مالك بدليل قوله :

تكاد بلاد الله يا أم مالك ... بما رحبت يوماً على تضيق

وكانت سمراء اللون قصيرة القامة فصيحة الكلام وعلى خدها الأيمن شامه وكان سبب عشقه لها أنه ركب يوماً على ناقة له وخرج من الحى على سبيل النزهة والتسيير وعليه حلتان من الديباج والحرير فأقبل على بعض الغدران فوجد عليه جماعة من البنات والنساء فحياهن بالسلام وتكلم معهن بأفصح كلام فأعجبهن غاية الإعجاب واستدعينه للحديث والخطاب وكانت ليلى من جملتهن فنزل وجلس معهن وجعل يحادثهن ويقلب طرفه عليهن حتى وقعت عينه على ليلى فافتتن بها واندهش وخفق فؤاده وارتعش وقال لهن هل عندكن شىء من الطعام ، قالت لا يا ابن الكرام ، فعمد الى الناقة فنحرها وأضرم النار وأخذ يشاغلها بالحديث والأخبار ومناشدة الأشعار وهو شاخص فيها دون باقى النساء ثم قال لها أتأكلين الشواء قالت نعم أيها السيد المحترم ، فطرح الناقة على الجمر فى الحال وقد اعتراه الخبال وتضعضعت منه الأحوال من شدة الوجد والبلبال ، فقالت له ليلى انظر

إلى اللحم هل تضج أم لا ، فتقدم إلى الجمر وقبضه بكلتا يديه وسقط على وجه الأرض مغشياً عليه فأكل الجمر لحم راحتيه .

فلما رأته على تلك الحال مدت إليه ذراعها وشدت يده بهدب قناعها وعلمت أنه غرق فى بحر هواها وقد اشتهاها وتمناها ، فتغير لون وجهها من شدة الحياء وأقام قيس معهن كل ذلك اليوم إلى المساء ثم ذهب وهو على غير الاستواء من تباريح الوجد والهوى ، فلما جن الليل أخذ فى الافتكار وصرف ليلة بالبكاء ومناشدة الأشعار فمن ذلك قوله :

نهارى نهار الناس حتى إذا بدا ... لى الليل هزتنى إليك المضاجع
أقضى نهارى بالحديث وبالمنى ... ويجمعنى الليل الذى هو جامع
إذا مر يوم من حياتى ولا أرى ... خيالك ياليلى فعمرى ضائع
تضيق على الأرض حتى كأننى ... من الصبر فى سجن فما أنا صانع

(قال الراوى) فلما كان ثانى الأيام استدعته للمنادمة والكلام وقد داخلها الحب والغرام لأنها كانت مغرمة بأحاديث الناس وأشعارهم وكان هو عارفاً بأيام العرب وأخبارهم فتمكنت بينهما المحبة والمودة حتى لم يستطع فراقها ساعة واحدة هذا ، هو المشهور فى كيفية عشقهما حسب ماذكرناه ، وزعم البعض أن سبب وقوع الهوى بينهما خلاف ما أوردناه وهو أنهما قد كانا صغيرين يرعيان الغنم بدليل قوله :

تعشقت ليلى وهى غر صغيرة ... ولم يبد للأتراب من ثديها حجم
صغيرين نرعى البهم ياليت إننا ... إلى اليوم لم نكبر ولم تكبر البهم

فتحابا ومضى على ذلك برهة وهما بأطيب عيش ونزهة ثم حجبت عنه كما سيأتى الخبر وجرى عليه مالم يجر على قلب بشر ، وعلى كلتا الحالتين عرف كل منهما ماعند الآخر ، وكان قيس يذهب فى كل يوم إلى بيتها فيقف عنده حتى يراها ، فيشكو إليها ماعنده من حبها وهواها ، ولم يكن دأبه إلا البكاء

والانتحاب ومناشدة الأشعار فى الليل والنهار، وأقام أياماً لا يلذ له حال ولا يطعم له بال حتى اعتراه السقام من شدة الوجد والغرام.

(قال الراوى) ولما كان ذات يوم سألها قيس أمراً من الأمور لينظر هل له فى قلبها مثل الذى فى قلبه فمنعته حاجته وأظهرت النفور وكان قصدها بذلك امتحان الصحبة لترى ما عنده من المحبة فقال لها لقد أخلفت ما عهدته فيك ثم اصفر لون وجهه وكاد أن يتفطر وأنشد يقول:

مضى زمن والناس يستشفعون بى فهل لى إلى ليلى العداة شفيع
يضعفنى حبك حتى كأننى من الأهل والمال التليد نزيع
إذا ما نهانى العاذلون تهتكا أبت كبدى مما أجن أطيع
وكيف أطيع العاذلين وحبها يؤرقنى والعاذلون هجوع

فلما سمعت شعره بكت وأنشدت تقول:

كلانا مظهر للناس بغضاً وكل عند صاحبه مكين
وأسرار الملاحظ [illegible] تخفى [illegible] الذى لا يبين
وكيف يموت هذا [illegible] [illegible] فى النفس تظهره العيون
وظنى نفسها بك [illegible] [illegible] هواك فى قلبى دفين

[illegible] سمع [illegible] ما حوت [illegible] أنشد وقال:

أحبك حباً لو تحبين مثله أصابك من وجد على جنون
حبيب مع الغزلان [illegible] حزين وأما ليله فأنين
[illegible] لا [illegible] حوجة [illegible] قضى الحب فهو يكون

[illegible] الحب [illegible] الآخر [illegible] إلا [illegible] يقترض [illegible] ذلك [illegible] حاجة [illegible] إذا [illegible]

تشكو ماله عندها من الشوق إلى رؤياه ، وأنها لا تميل إلى أحد سواه . فلما سمع كلامها طاب قلبه وزال غمه وكربه هذا وقد انتهيا بالحديث مع بعضهما البعض حتى امتلأ الإناء وصار السمن يقطر على الأرض ، وما زالا يتحدثان نحو ساعة من الزمان إلى أن غرقت أرجلهما بالسمن ولا يعلمان ، وكان أبوها قد استبطأها فصاح عليها وناداها فلم تنتبه إليه ولا ردت عليه ، فخرج ليكشف الخبر وقد أنكر أمرها فوجدهما على تلك الحالة المتقدم ذكرها ، فاستعظم ذلك الأمر ثم منعها الزيارة فى الليل والنهار وحجبها عنه خوفاً من الفضيحة والعار ، فكان يغتنم غفلة الرقيب ويجتمع بها فيطفى مابقلبه من نار اللهيب . فلما بلغه ذلك شكاه إلى الخليفة عبد الملك بن مروان وأعلمه بذلك الشأن . فكتب إلى عامله الذى كان والياً على القوم يأمره بقتله إذا هو زارها بعد ذلك اليوم ، ولما قرأوا عليه الكتاب ووقف على حقيقة الخطاب تنهد وتحسر وأنشد وقال :

لئن حجبت ليلى وآلى أميرها   على يميناً جاهداً لا أزورها
على غير شىء غير أنى أحبها   وأن فؤادى عند ليلى سميرها

ولما يئس من زيارتها أخذه القلق والوسواس حتى أشرف على زوال عقله وصار مثلا بين الناس ، فأقبل عليه أبوه وبنو عمه وإخوته ومن يلوذ به من أهله وخلانه وقالوا له ياقيس اتق الله وأعرض عن هذه الجارية واسلها واعلم أنك إن دمت على هذه الحال أتلفت مهجتك فى هواها ونساء العرب كثيرات وفيهن من تضاهى البدور الزاهرات فأحب من هى أحسن منها وإنك فى غنى عنها فقد هتكت حالك بين الأهل والخلان وصرت مثلا بين القبائل والعربان . فلما ألحوا عليه بالكلام قال دعونى ياقوم من العتب والملام فإنى لا أختار امرأة عليها ولا أميل إلا إليها ثم أنشد :

تقول العدا لا بارك الله في العدا   لقد قصر عن ليلى ورثت وسائله
ولو أصبحت ليلى تدب على العصا   لكان هوى ليلى جديداً أوائله

وعند ذلك ساروا جمعاً وأتوا أبا ليلى وحدثوه بالقصة وأعلموه بما وقع لقيس من القصة وسألوه القرابة وأقسموا عليه باسم الله أن [illegible]

[illegible]

أن وقع مغشياً عليه ، فقدمت ورشت له الماء وقبلته بين عينيه ، فلما أفاق أنشد وقال .

ألا أيها القلب اللجوج المعذل أفق عن طلاب الغيد إن كنت تعقل
فقد أفاق العاشقون وإنما تماديك فى ليلى ظلام مضلل
فعز تصبر واستعن بخلاله فصبرك فيما لا يدانيك أجمل
ألا كل ذى ود علمت مكانه وأنت بليلى مستهام موكل
فقدت فؤادى ما اجترت ملامة إليك ولكن أنت باللوم تعجل
[illegible] نفسى بالحديث وبالمنى لعل إلى أيام ليلى تعلل
[illegible] الله من [illegible] الجسل [illegible] فقلت أجل حاشاك إن كنت تفعل
وقلت له بالله ياليل إننى أبر وأوفى بالعهود وأوصل
[illegible] أذنبت ذنباً علمته ولا ذنب لى ليلى فصفحك أجمل
[illegible] شئت قتلا إن حكمك أعدل
[illegible] طال حتى مللته ويحيى إذا ماجنى الليل أطول
[illegible] دائماً وعيناه من وجد عليهن تهمل
ألا [illegible] ليلى [illegible] [illegible]

[illegible] من شعره اغرورقت عيناه بالدموع [illegible] أن يختنق [illegible] قلب [illegible] وهو يبكى ويتنهد [illegible] عظم عليه الحال [illegible]

[illegible] المتعوب [illegible] [illegible] يجور [illegible]
[illegible] المهرم والهائم [illegible] [illegible] الدنيا والحليوب [illegible]
[illegible] وتحسر وأشرب كأساً [illegible]
[illegible] ليلى فؤادى [illegible] وروحى تقضى ما تحب [illegible]
[illegible] أن [illegible] بمودة كلانا [illegible] ولا [illegible]
[illegible] ترى [illegible] فهات [illegible] برق ويرحمه

صريع من الحب المبرح والهوى ... وأى فتى من علة الحب يسلم
بكى لى يا ليلى الفؤاد وإنه ... ليبكى ما يلقى الفؤاد ويكتم
أما إنه مالاقى جميل بن معمر ... كوجدى بليلى لا ولم يلق مسلم
ولم يلق قابوس وقيس وعروة ... ولم يلقه قبلى فصيح وأعجم
صبا يوسف واستشعر الحب قلبه ... ولا كاد داود من الحب يسلم
وبشر وهند ثم سعد ووامق ... وتوبة أضناها الهوى المتقسم
وهاروت لاقى من جوى الحب علة ... وماروت فاجأه البلاء المصمم
ولم يخل منه المصطفى سيد الورى ... أبو القاسم الزاكى النبى المطهر
أبيت صريع الحب دام من الهوى ... ودمعى على جسمى يموج ويسجم
ولولا طروق الليل أودت بنفسه ... منعمة اللحظين تبرى وتسقم
إذا هى رادت فى الثرى زاد فى الهوى ... فلا قلبه يسلو ولا هى ترحم
أعارت أنفاس الصب بك صبوة ... لها بين جنبيه سعير مضرم
ألا إن دمع الصب عما يجنه ... وإن لم يفه يوماً به متكلم
سأى عينى الهوى [illegible] الحق ... ودمعى فصيح فى الهوى وهو أعجم
وكيف يطيق الصب كتمان سره ... وهل يكتم الوجد امرؤ وهو مغرم

وقال الراوى : وأقام قيس بعد ذلك أياماً وهو يكابد ألم الفراق وفى ذات يوم ركب ناقته وصار طالباً زيارة ليلى فى ذلك المكان ، فوجد الحى خالياً من السكان لا يسمع فيه صوت إنسان سوى صياح البوم ونعيق الغربان فجلس يفكر فى مواقد النيران ويفكر فى تقلبات الزمان ، فعند ذلك زادت [illegible] قهراً وبكى بكاءً مراً وأنشد :

[illegible] أن رحلوا ... وساروا بليلى والركائب ظلع
[illegible] أمست ... وعرصتها فى سائر الدهر بلقع
[illegible] ... اطير بمبكيها وعاير يسجع
[illegible] ... فيا للعدا من صبوة كيف أصنع

أأتبع ليلى حيث راحت وخيمت ... وما الناس إلا آلف ومودع
فإن يك جثمانى بأرض بعيدة ... فإن فؤادى عندك الدهر أجمع
ألا تتقين الله فى قتل عاشق ... له كبد حرى عليك تقطع
غريب مشوق مولع بديارکم ... وكل غريب الدار بالشوق مولع
فأصبحت مما أوقع الدهر موجعاً ... وكنت لريب الدهر لا أتضعضع
قنعت بلحظ منك ليلى وإنما ... ينال المنى من كان باللحظ يقنع
أبيت بروحاء الطريق كأننى ... أخو خبل أوصاله تتقطع

(قال الراوى) فبينما هو على تلك الحال وإذا براع يرعى غنمه فى ذلك الحى فقصده حتى وصل إليه فسلم عليه وسأله عن أخبار القوم فقال له: رحلوا إلى جبل توباد فى صباح ذلك اليوم ، فسار وهو منزعج الفؤاد حتى أقبل على جبل توباد وكان ذلك الوقت فى آخر النهار فوجده خالياً من الرجال ليس فيه إلا النساء والبنات الأبكار ، وبلغ ليلى قدومه من بعض الجوارى فداخلها الفرح والاستبشار فخرجت إلى ملاقاته لأنها تشتاق أن تراه ، فلما وصلت إليه سلمت عليه فابتهج وانشرح وكاد يطير من الفرح وأخذ كل منهما يشكو ما هو فيه من ألم الفراق والهوى وتباريح الوجد والجوى ، ثم قالت له فى آخر الكلام كيف كان صبرك عنى يا قيس فى هذه الأيام ، فقال لها والله يا منية القلب والروح التى بين جنبين ليس لى عنك صبر ولا سلوان وقد أقلقنى الوجد والهيمان من كثرة الأفكار وسهر الليل والنهار حتى لم يبق لى هدوء ولا اصطبار ولا أقمت فى مكان ولى فيه قرار وما تركت زيارتك إلا خوفاً عليك من الأعداء اللئام الذين ليس لهم عهد ولا ذمام ، فإن بزيارتك تنجلى همومى وتنقضى غمومى وينشرح صدرى وتصفو مرآة فكرى ثم بكى وأنشد يقول :

أبا نس زند البين يقدح فى صدرى ... ونار الأسى ترمى فؤادى بجمر
دوالله ما أنساك ما هبت الصبا ... وما ناحت الأطيار فى وضح الفجر

وما نطقت بالليل سارية القطا   وما صدحت فى الصبح غادية الكدر
وما لاح نجم فى السماء وما بكت   مطوقة شجواً على فنن السدر
وما طلعت شمس لدى كل شارق   وما هطلت عين على واضح النحر
فأقسم لا أنساك ما ذر كوكب   وما خب آل فى معلمة قفر

فلما سمعت منه هذه الأبيات بكت وضمته إلى صدرها وأنشدت :

ولقد أردت الصبر عنك فعاقني   حلول بقلبي من هواك قديم
وينفى جفاك النوم من كل لذة   ويقلقنى ذكــراك وهو عظيم

ثم ودعها وسار خوفاً من قدوم الرجال وفى رجوعه إلى أهله أنشد وقال :

حلا ذكر الأحبة فى فؤادى   فهمت من الغرام بكل واد
وقد باحت بأسرارى دموعى   وجفنى قد جفا طيب الرقاد
وكم ناديت بين خيام ليلى   وكم فى حبها مثلى ينادى
أنا المضنى فجودى لى بوصل   فقد زاد السقام إلى السهاد
وكم أجريت يوم البين دمعاً   على الخدين كالسحب الغوادى
فما أحلى التهتك فى حماها   حماها الله من كيد الأعادى
عسى بالوصل أحظى قبل موتى   وأفرح باللقا بعد البعاد

﴿ وقال أيضاً ﴾

إذا نظرت نحوى تكلم طرفها   فجاوبها طرفى ونحن سكوت
ولو خلط السم المذاب بريقها   وأسقيت منه نهلة لبريت

﴿ وقال أيضاً ﴾

ولو شهدتنى حين تأتى منيتى   جلا سكرات الموت عنى كلامها
فياليتنا نحيا جميعاً وإن نمت   تجاور فى الهلكى عظامى عظامها

(قال الراوى) وجد قيس فى قطع الطريق وهو مسرور بذلك الموفق حتى أقبل إلى الديار والشوق فى قلبه كلهيب النار ، فلما دخل إلى الخيام قدمت له أمه شيئاً من الطعام فأبى ولم يأكل ولا عرفت عينه المنام بل قضى ليله

فى البكاء والنواح إلى أن بدت غرة الصباح ، فلما رآه أبوه على تلك الحال وقد تغير جسمه واعتراه الهزال رثى لحاله وخاف من انزعاج باله وقال ياولدى ويا مهجة كبدى ارجع عن هذا الأمر واقبل النصيحة فقد هتكت نفسك وصرت مثلا بين الورى وأحدوثة لكل من يسمع ويرى، فكم قد نصحتك وأنت لم تسمع وأردك فلم ترجع وكل ذلك من أجل جارية من بنات العرب وهى دونك فى الحسب والنسب ، وأنا أشير عليك الآن ألا تذكرها بشفة ولا بلسان فإن حديثك قد شاع بين جميع العربان واشتهر فى كل مكان ، فاذكر الله وتب إليه مما أنت عليه . فلما سمع من أبيه ذلك الخطاب تغلب عليه الحزن والاكتئاب وقال له كلما حدثتنى بهذا الكلام ازداد بى العشق والغرام ثم هاجت به الأشواق وغلبت عليه غصه الفراق ، فبكى وانتحب وفاض دمعه وانسكب ، واشتعل قلبه والتهب وأنشد يقول :

وكم قائل لى اسل عنها بغيرها ... وذلك من قول الوشاة عجيب
فقلت وعينى تستهل دموعها ... وقلبى بأكناف الحبيب يذوب
لئن كان لى قلب يذوب بذكرها ... وقلب بأخرى إنها لقلوب
فيا ليل جودى بالوصال فإننى ... بحبك رهن والفؤاد كئيب
فلا تتركى نفسى شعاعاً فإنها ... من الوجد قد جادت عليك تذوب
وألقى من الوجد المبرح سورة ... لها بين جلدى والعظام دبيب
وأنى لأستحييك حتى كأنما ... على بظهر الغيب منك رقيب

(قال الراوى) فبكى أهله رحمة له وطلبوا من الله أن يعافيه مما ابتلاه ، فلما سمع كلامنهم تنفس الصعداء وتنهد وأشار إليهم وأنشد :

لقد لامنى فى حب ليلى أقاربى ... أبى وابن عمى وابن خالى وخاليا
يقولون ليلى أهل بيت عداوة ... بنفسى ليلى من عدو وماليا
أرى أهل ليلى لا يريدون بيعها ... بشىء ولا أهلى يريدونها ليا

فليت نسيم الريح أدى تحيتي ... إليها وما قد حل بي ودهانيا
فيا عجباً ممن يلوم على الهوى ... فتى دنفاً أمسى من الصبر عاريا
وهيهات أسلو من الوجد والهوى ... وهذا قميصي من الحزن باليا
معذبتي لولاك ما كنت هائما ... أبيت سخين العين حيران باكيا
أبيت ضجيع الهم ما اطعم الكرى ... أنادي إني قد لقيت الدواهيا
بساحرة العينين كالشمس وجهها ... بضيء سناه في الدجى متساميا
خليلي مدا لي فراشي وارفعا ... وسادي لعل النوم يذهب ما بيا
وإن مت من داء الصبابة بلغا ... شبيهة ضوء الشمس مني سلاميا

(وقال أيضاً)

ما بال قلبك يا مجنون قد هلعا ... في عشق من لا ترى في وصلها طمعا
تقول صحبي ودمع العين منحدر ... سيلا على الخد هطالا ومندفعا
طالما أبكي ولم أسمع بمنزلة ... هذا البكاء لصب مرجع فجعا
فقلت كفوا فإن القلب ويحكم ... لو كان صخرة صماء لا نصدعا
طوبى لمن أنت يا ليلى قرينته ... لقد نفى الله عنه الهم والوجعا
فما قرأت كتاباً منك يبلغني ... إلا ترقرق دمع العين واندفعا
دعوا إلى هجرها قلبي فيتبعني ... حتى إذا قلت هذا صادق نزعا
لا يستطيع نزوعاً عن مودتها ... أو يصنع الوجد فيها غير ما صنعا
كم من وفى لها قد كنت أتبعه ... ولو صحا القلب عنها كان لي تبعا
تزيدني كلفا في الحب إن منعت ... أحب شيء إلى الإنسان ما منعا
وهاتف من فنان الأيك أزعجني ... بصوته في ظلام الليل حين دعا
كأن عينيه من حسن احمرارهما ... فصان من حجر الياقوت قد قطعا
يدعو حمامته طير وقد هجعت ... والله ما هجعت عين وما هجعا
كأنه راهب في رأس صومعة ... يتلو الزبور ونجم الصبح قد طلعا

أو قس دير تلا مزماره سحرا   ما زال مذ كان طفلا يسكن البيعا
فالريح تخفضه حيناً وترفعه   قد كان يخفضها طيراً ويرتفعا
فقلت ياطير ماهذا البكاء وقد   قل العزاء وأبدى القلب ماجزعا
إن طرت طار معى كى لا يفارقنى   وإن أراد وقوعاً قلبه وقعا
وقد دعانى به ريب المنون ولم   ترجع إلى وكل الطير قد رجعا
وكل إلف يبكى إلف صاحبه   عند الفراق بوجد قط ما فجعا
وكنت أبكى ونار الوجد تقلقنى   حتى رأيت عمود الصبح قد سطعا
فالحمد لله أبكانى وأضحكنى   والحمد لله شكراً للذى صنعا
احفظ صديقك لا تقطع مودته   لا بارك الله فيمن خان أو قطعا
إن المنازل تبنى بعد ما خربت   وليس يوصل رأس بعد ما قطعا
إزرع جميلا ولو فى غير موضعه   فلا يضيع جميل أينما زرعا

(وقال أيضا)

ولو أن ما بى بالحصى فلق الحصى   وبالريح لم يسمع لهن هبوب
ولو أن ما بى بالجبال لهدمت   وكاد جلاميد الصخور تذوب
تذكرنى ليلى على بعد دارها   وليلى قتول للرجال خلوب
فويلى على العذال ما يتركوننى   بغمى أما فى العاذلين لبيب
فإن عشت لا أبغى سواك وإن أمت   فما موت مثلى فى هواك عجيب
ولو أننى أستغفر الله كلما   ذكرتك لم تكتب على ذنوب
فدومى على عهدى فلست بزائل   عن العهد منكم ما أقام عسيب

(قال الراوى) وما زال قيس على مثل هذا الشأن مدة من الزمان ، وهو يكابد الوجد والهيمان ، وقد تملكت عليه الهموم والأحزان وكان كثيراً مايجول فى الفلوات يندب ندب الثاكلات ، ويمر بين أشجار الغضا ويتوغل فى الفلا والفضاء حتى صار فى حالة الذل والويل من كثرة البكاء

وسمر الليل واتفق أنه مر يوماً فى بعض الكثبان فرأى أن رجلا نصب شركاً لصيد الغزلان ، فدنا منه وحياه بالسلام وقال له عندك شىء من الطعام فقال إنى بعيد الديار مسافة نصف نهار ، وقد نصبت أشراكى فى هذه الربى فاصبر قليلا واطرد على الظبا ، فان اصطدنا بلغنا المراد وسددنا رمق الفؤاد ، لأنى من نحو يومين ما استطعمت بزاد ، فبينما هو عنده إذ وقعت بالشرك ظبية فوثب قيس إليها وقبلها بين عينيها ثم أطلقها وأشار يقول :

أيا شبه ليلى لا تراعى فإننى ... لك اليوم من دون الوحوش صديق
ويا شبه ليلى لو توقفت ساعة ... عليها سحاب هاطل وبروق
ويا شبه ليلى لو توقفت ساعة ... لعل فؤادى من جواه يفيق
أقول وقد أطلقتها من وثاقها ... فأنت لليلى إن شكرت طليق
فعيناك عيناها وجيدك جيدها ... سوى أن عظم الساق منك دقيق
تكاد بلاد الله يا أم مالك ... بما رحبت يوماً على تضيق
توق إليها النفس ثم أردها ... حياء ومثلى بالحياء خليق
ولو تعلمين الغيب أيقنت أننى ... حبيب وانى للحبيب مشوق
أروم سلو النفس عنك ومالها ... إلى أحد إلا إليك طريق

فاستشاط الصياد غضباً وتغيرت منه الأحوال واعتراه الانزهال ، وقال ياهذا ماهذه الفعال التى لم يسبق إليها أحد من الجهال ، فقد من الله علينا بما كنا نتمناه ، وأحرمتنا إياه ، فقال له قيس وقد اشتد به جواه وعظم مصابه وبلاه ، لا تلمنى فإن عينيها تشبه عينى من أهواه ، ثم تركه وسار يجول فى تلك القفار ، وإذا به يرى ظبية أخرى فأسرع نحوها وقبض عليها ومسح التراب عن وجهها وقرنيها وبعد ذلك أطلقها وأشار يقول :

اذهبى فى حراسة الرحمن ... أنت منى فى ذمة وأمان
لا تخافى ولا تخافى بسوء ... ماتغنى الحمام فى الأغصان

(وقال أيضاً)

أقول لظبي مر بي وهو رائع　　أأنت أخو ليلى فقال يقال
أيا شبه ليلى إن ليلى مريضة　　وأنت صحيح إن ذا لمحال

(قال الراوي) وكانت ليلى قد مرضت مرضاً شديداً، فلما بلغه الخبر خفق فؤاده وتكدر، وأخذه القلق والضجر، وأنشد يقول:

يقولون ليلى بالعراق مريضة　　فمالك لا تضنى وأنت صديق



(قيس وليلى يتناجيان) بريشة أمير عباس

سقى الله مرضى بالعراق فإنني　　على كل مرضى بالعراق شفيق
فإن تك ليلى بالعراق مريضة　　فإني في بحر الغرام غريق
أهيم بأقطار البلاد وعرضها　　ومالي إلى ليلى الغداة طريق
كأن فؤادي فيه نار تناوحت　　وفيه لهيب ساطع وبروق

إذا ذكرتها النفس ماتت صبابة — لها زفرة قتالة وشهيق
سبتني شمس تخجل الشمس نورها — ويكسف ضوء البدر وهو شروق
غرابية الفرعين بدرية النسا — ومنظرها بادي الجمال أنيق
وقد صرت مجنوناً من الحب هائماً — كأني عان في القيود وثيق
برى حبها جسمي وقلبي ومهجتي — فلم يبق إلا أعظم وعروق
فلا تعدلوا بل إن هلكت ترحموا — على فقد النفس ليس يعوق
وخطوا على قبري إذا مت أسطراً — قتيل لحاظ مات وهو عشيق
إلى الله أشكو ما ألاقي من الهوى — بليلى ففي قلبي جوى وحريق

(وقال أيضاً)

ألا إن ليلى بالعراق مريضة — وأنت خلي البال تهنو وترقد
فلو كنت يامجنون تضنى من الهوى — لبت كما بات السليم المسهد

(قال الراوي) ومر رجل ذات يوم بليلى وهي واقفة على باب خبائها وهي قد تعافت من عياها، فقالت له ياهذا إلى أين أنت سائر؟ فقال لها إلى ديار بني عامر، فتنهدت وبكت وأنت واشتكت وأنشدت تقول:

يا أيها الراكب المزجي مطيته — عرج لأنبيء عني بعض ما أجد
فما أرى الناس من وجد تضمنهم — إلا ووجدي بقيس فوق ما وجدوا
هوى رماه وإني في مودته — ورده إلى آخر الأيام اجتهد

(قال الراوي) فاشفق الرجل عليها وتقدم إليها وقال لها حياك الله ياحرة العرب هل لك من حاجة قالت إن كنت من أهل المروءة وكرم الأخلاق والفتوة وعمل [illegible] المعروف واجبر كسر قلبي الملهوف وهو أنك متى وصلت إلى [illegible] قيس بن الملوح بن مزاحم فمتى اجتمعت به أقرئه مني [illegible] وقل له ابنة عمك ليلى قد أضناها السقام من شدة الوجد والغرام

وهي لا تلتذ بطعام ولا تذوق أجفانها المنام وقد سارت ميلا بين النساء في سائر الأنحاء ثم كتبت له رقعة ضمنتها هذه الأبيات :

وأنت الذى أخلفتنى ما وعدتنى … وأشمت بى من كان فيك يلوم
وأبرزتنى للناس ثم تركتنى … لهم غرضاً أرمى وأنت سليم
فلو أن قولا يكلم الجسم قد بدا … بجسمى من قول الوشاة كلوم

فسار الرجل طالباً حى بنى عامر حتى وصل إليه واستدل على قيس فدلوه عليه فحياه بالسلام وحدثه بما قالته ليلى على التمام . فلما سمع قيس شعر ليلى أن أنين الشكلى ثم تنهد من فؤاده متبول وكتب اليها مع ذلك الرجل يقول :

وأنت التى كلفتنى دلج السرى … وأحدثت جرح القلب وهو كليم
وأنت التى قطعت قلبى صبابة … ورقرقت دمع العين وهو سجوم
وأنت التى أغضبت قومى فكلهم … بعيد الرضى دانى القطوف كظيم

ثم خرج يجول فى نواحى ذلك الوطن إذ مر به سرب من القطا فلما رآه أنشد يقول :

شكوت إلى سرب القطا إذ مررن بى … فقلت ومثلى بالبكاء جدير
أسرب القطا هل من معير جناحه … لعلى إلى من قد هويت أطير
وأى قطاة لم يعرنى جناحها … فعاشت بضر والجناح كسير
وإلا فمن هذا يؤدى رسالتى … وأشكره إن المحب شكور
إلى الله أشكو صبوتى بعد كربتى … ونيران شوق ما بهن فتور
وإن لم أمت هماً وغماً وكربة … يعاودنى بعد الزفير زفير
إذا جلسوا فى مجلسى هدروا دمى … فكيف تراها عند ذاك تجير
ودون دمى هز الرماح كأنها … توقد جمر ثاقب وسعير
أرى النوم يأتى دون ليلى كأنما … أتى دون ليلى حجة وشهور
ففكى أسيراً مستهاماً فإنه … إلى ذاك منكم فارحميه فقير

طوت أم عمرو بعد نأى ركابها ... وبان افتراقى والذين أزور
وجالت جبال البعد بينى وبينها ... وهيهات مقصوص الجناح يطير
قطعن الحصى والرمل حتى تفلقت ... قلائد فى أعناقها وظفور
سلوا أم عمرو هل ينول عاشق ... أخو سقم أو هل يفك أسير
ألا قل لليلى هل تراها مجيرتى ... فإنى لها فيما لدى مجير
أظل بحزن أن تغنت حمامة ... من الورق مطراب العشى بكور
بكت حين در الشوق لى وترنمت ... وأرقنى نوح لها وهدير
أيذهب عقلى بعد حلمى وقد علا ... عذارى من لون الشباب قتير
ومستجلى بعد التحلم نسوة ... أشار بليلى نحوهن مشير
تعودن قتل المسلمين كأنما ... لهن دماء المسلمين طهور

(قال الراوى) ثم مضى على وجهه وأوسع فى القفار فبينما هو يدور إذ
طيار يجاوب بعضهم بعضاً على غصون الأشجار فدنا منها وأنشد يقول

ألا يا حمامات الحمى عدن عودة ... فإنى إلى أصواتكن حنون
فعدن فلما عدن كدن تمتنى ... وكدت بأسرار لهن أبين
وعدن يفرقن الهدير كأنما ... شربن مداماً أو بهن جنون
فلم تر عينى مثلهن حمائماً ... بكين فلم تدمع لهن عيون
وأصبحن قد قرقرن إلا حمامة ... دعت مثل نوح الثاكلات أنين
تذكرنى ليلى على بعد دارها ... رواجف قلب بات وهو حزين
فبالبت ليلى بعضهن وليتنى ... أطير ودهرى عندهن ركون

(وقال أيضاً)

أجدك يا حمامات تطوق ... لقد هيجت مشغوفاً حزينا
أغرك يا حمامات طريق ... بأنى لا أنام وتهجعينا
وأن فى شكاة أقرب حتفه ... رأت فى شكاتك تكذبينا

وإني قد براني الحب حتى ضنيت وما أراك تغيرينا
أراك الله في محلك السلامى إلى من بالحنين تشوقينا
ولست وإن حننت أشد وجداً ولكني أسر وتعلنينا
وبي مثل الذي بك غير أني أحل عن العقال وتعقلينا
أما والله غير قلى وبغض أسد ولم أزل جزعاً حزيناً
لقد جعلت دواوين الغواني سوى ديوان ليلى ممحلينا
فقدما كنت أرجى الناس عندي وأقدرهم على ما تطلبينا
ألا لا تنسين روعات قلبي وعصياني عليك العاذلينا

فبينما هو على مثل ذلك هبت ريح من نحو أرض نجد فهاج به الغرام والوجد فأنشد وقال:

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد وقد زادني مسراك وجداً على وجد
رعى الله من نجد أناساً أحبهم فلو نقضوا عهدي حفظت لهم ودي
سقى الله نجداً والمقيم بأرضها سحاب غواد خاليات من الرعد
إذا هتفت ورقاء في رونق الضحى على فنن غض النبات من الرند
بكيت كما يبكي الوليد ولم أزل جليداً وأبديت الذي لم أكن أبدي
وأصبحت قد قضيت كل لبانة تهامية واشتاق قلبي إلى نجد
وإن قربت دار بكيت وإن نأت كلفت فلا للقرب أسلو ولا البعد
ألا حبذا نجد وطيب ترابه وأرواحه إن كان نجد على العهد
إذا وعدت زاد الهوى لانتظارها وإن بخلت بالوعد مت على الوعد
وقد زعموا أن المحب إذا دنا يمل وأن النأي يشفي من الوجد
بكل تداوينا فلم يشف ما بنا على أن قرب الدار خير من البعد
على أن قرب الدار ليس بنافع إذا كان من تهواه ليس بذي ود

ثم مر به غراب فخفق فؤاده وارتاب وعظم عليه الخطب فأنشد وقال

ألا يا غراب البين هيجت لوعتي فويحك خبرني بما أنت تصدح

أبالبين من ليلى فإن كنت صادقاً ... ولا زال عظم من جناحيك يفسخ
ولا زال رام فيك فوق سهامه ... ولا أنت في عيش ولا أنت تفرخ
ولا زلت من عذاب المياه مبعداً ... ووكرك مهدماً وبيضك يرضخ
فان طرت أردتك الحتوف وإن تقع ... تقيض ثعبان بوجهك ينفخ
وعاينت قبل الموت لحمك مشدخاً ... على جمر حر النار يشوى ويطبخ
ولا زلت في شر العذاب مخلداً ... وريشك منتوف وجلدك يسلخ

(قال الراوي) ولما جن عليه الظلام ارتد راجعاً إلى الخيام وبات في قلق شديد وغم ما عليه من مزيد . ولما كان الصباح رجع إلى ما كان عليه من البكاء والنواح وقال وما زال على تلك الحال حتى ضعف جسمه واعتل وكاد عقله من شدة الوسواس أن يختل وباع لليلى الخبر فأخذها القلق وضجره واصفرار لونه ونحوله وتغيره . وفاض دمعها على خديها وانحدر وأصبحت على البكاء والسهر وجرى عليها ما لم يجر عن ثابت ثم كتبت إليه مع من تعتمد عليه أيها الحبيب والسيد الأديب مهجة الفؤاد وزينة الأمجاد من فقت سائر الأنام بالكمال وحسن الخصال وحفظ العهود والذمام والمحبة الصحيحة الخالية من الآثام لقد بلغني ما أنت فيه من الشوق والغرام والوجد والهيام ومكابدة السهر وهجران الطعام واحتمال كلام اللوم حتى اعتراك الهزال وصرت ناحلا كالخيال وحيث الحالة هذه فاحضر في نصف الليل إلى وادي الأراك وأنا أوافيك إلى هناك ولو خاطرت بنفسي في هواك فلا يساوي لذة رؤياك وختمت كلامها بهذين البيتين :

يا منيتي أنت مقصودي ومطلوبي ... وأنت رغماً عن الأعداء محبوبي
إن تحتجب عن عيون الصب يا أملي ... ما أنت عن قلبي المضنى بمحجوب

(قال الراوي) ولما بلغ قيساً هذه الرسالة ووقف على فحوى تلك المقالة انشرح صدره واستراح وخفت عنه بعض الأتراح وأنشد وقال :

تعود مريضاً أسقمته بهجرها ... ولو عاودته عاد لا يعرف السقما

أضرمت بالقلب ناراً من الجوى　　فما تركت عظما ولا تركت لحما
وإني على هجرانها وصدودها　　وما حل بي منها أرى حبها حتما
خليلي كما لا تلوما متيما　　ولا تقتلا صبا بلومكما ظلما

(قال الراوي) ثم انه قصد ذلك المكان وفي قلبه لهيب النيران إلى أن وصل إلى تلك الأرض عند إقبال الظلام ، فجلس وهو يتأسى في الربى والآكام إلى أن انتصف ظلام الليل وعلا نجم سهيل ، فعند ذلك زاد به القلق والسوت والأرق . فارتعش فؤاده وخفق ووقع على وجه الأرض وشهق ، وإذا بليلي قد أقبلت نتقدمت إليه وسلمت عليه وقبلته في عارضيه وبين عينيه ، فلما رآها فرح وابتسم وزال عنه الغم والضجر فنهض في الحال وجلس وردت روحه إليه بعد أن كان على آخر نفس لأن العاشق لا يبرأ إلا بنظر الحبيب إذ رآه ذهب ما به لما من اللهيب . ثم قالت له لقد بلغني ما أنت به من الهم والحزن حتى ضعف جسمك وتغير لون وجهك بعد ذلك الحسن وذلك كله لأجلي ولا كنت أنا ولا كان أهلي . فقال لها وحق من يقول للشيء كن فيكون انني منذ فارقتك للآن لم تغمض لي جفون ، بل كنت أهيم مع الوحوش في البراري والقفار أشد الأنس وأقتفي الآثار وألقي نفسي في المهالك والأخطار وأصل الليل بالنهار ، ولا يطيب لي عيش ولا يقر لي قرار . حتى نصرت الأمل مني وانقلبت القلوب عني وكنت كلما ذكرتك خفق فؤادي وغاب رشادي وتبلبل خاطري واشتعلت سرائري إلى أن اضمحل جسمي من الهزال وذاب من شدة الوجد والبلبال لأن ملك الهوى عنيد وقيده أشد من سلاسل الحديد والآن قد انحلت عن قلبي الكروب وانشرح صدري برؤيتك بعد أن كان متعوب ، ثم غلب عليه جواه وتذكر ما قاساه فتأوه وتنهد وأشار إليها وأنشد :

فوالله لا أدري علام هجرتني　　وأي أمور فيك يا ليل أركب

أقطع حبل الوصل فالموت دونه   وأشرب كأساً علقها ليس يشرب
فلو كان لى قلبان عشت بواحد   وأبقيت قلباً في هواك يعذب
رمتنى يد الأيام عن قوس محنة   لا العيش يصفو لى ولا الموت يقرب
كعصفورة فى كف طفل يهينها   تقاسى عذاب الموت والطفل يلعب
فلا الطفل ذو عقل يرق لحالها   ولا الطير مطلوق الجناح فيذهب

(قال الراوى) فلما انتهى قيس من أبياته تساقط دمعه على وجناته فقالت له جزاك الله خيراً ولا أراك سوءاً ولا ضيراً ، ثم فاضت عيناه بالدموع وتنفست من فؤاد موجوع و أنشدت :

فلو أن ما ألقى وما بى من الهوى   بأرعن ركناه صفا وحديد
تقطع من وجد وذاب حديده   وأمسى تراه العين وهو عميد
ثلاثون يوماً كل يوم وليلة   أموت وأحيا إن ذا لشديد

(قال الراوى) ثم أنها حدثته بحالها وما أصابها من أجله وكيف خاطبها بعلها وأنها تحبه وتشتهيه ، قال وما زال قيس يحادث ليلى ويتذكر معها الطرب إلى أن مضى وقت السحر ولاح ضوء النهار وظهر بعد ذلك ودعته ورجعت على الأثر خوفاً من أن يراها أحد من البشر ، ورجع هو يطلب أطلاله والديار وفى قلبه من أجلها لواعج من نار وهو ينشد ويقول :

لقد أقسمت ليلى إلى رسولها   بأن آتها سراً إذا الليل أظلما
فجئت على خوف وكنت معوذاً   أحاذر أيقاظاً عداة ونوما
فبت وباتت لا مهمة ريبة   ولم نتبع يا صاح والله محرما
وكيف عزى قلب تعلم حبها   وقد أورثت فى القلب داء مكتما
ولو أن ليلى تدعى لحبها   ولو كنت ميتاً إذا لتكلما
ولو مسحت بالكف أعمى لأبصرت   عيناه وشيكاً ثم عاد بلا عمى
منعمة تبدو لحسن بوجهها   تزين بحسن عفة وتكرما

فتلك التي لو كان داء دواؤه وهاروت كل السحر منها تعلما

(وقال أيضاً)

سأبكي على ما فات مني صبابة وأندب أيام السرور الذواهب
وأمنع عيني أن تلذ بغيركم وإني وإن جانبت غير مجانب
وخير زمان كنت أرجو دنوه رمتنا عيون الناس من كل جانب
فأصبحت مرحوماً وكنت محسداً فصبراً على مكروهها والعواقب

(وقال أيضاً)

[illegible] من لا [illegible] لي أن أهاجره ومن أنا في الميسور والعسر ذاكره
[illegible] أحبت [illegible] وبغضت من قد كنت حيناً أعاشره
[illegible] يشفي نفس [illegible] ونجوى فؤادي لا تباح سرائره
أحبك يا سلمى على غير ريبة وما خير حب لا تعف ضمائره
وقد كان قلبي في حجاب يكنه فحبك من دون الحجاب يباشره
[illegible] هوى [illegible] عدو أحاذره

(وقال أيضاً)

[illegible] أكرمها [illegible] قمر توسط جنح ليل أسود
[illegible] بالحسن ذات حواسد إن الحسان مظنة لحسد
[illegible] ترنو بمقلة سوداء ترعب عن سواد الإثمد
[illegible] إذ كثر الكلام [illegible] بحمى الحياء وإن تكلم تقصد

(وقال أيضاً)

[illegible] إليه بجد [illegible] لآيس طوال الليالي من قفول إلى نجد
[illegible] واعترف بحر إلى يوم القيامة والوعد

وما [illegible] حبها [illegible] وشوقه إلى [illegible] حتى علاه [illegible] واس ونزلت محادثه
[illegible] القيامة فكان لا يبس [illegible] إلا حرفه ولا ثوباً إلا مزقه

وكان كثيراً ما يطوف فى البرارى والهضاب ويكتب الشعر بإصبعه فى الأرض على التراب ودمعه يجرى على خديه مثل قطر السحاب ، فلما طال عليه الحال رقت له قلوب الرجال وأقبل منهم جماعة على أبيه وقالوا له أخرجه إلى مكة يطوف بالبيت لعل الله يعافيه وعن حب ليلى يسليه فأجابهم إلى ذلك وامتثل وسار إلى مكة على عجل فلما قدموا به قال له أبوه ياقيس تعلق بأستار الكعبة ففعل فقال اللهم يامن احتجب عن عيون العالم بما كان وما يكون أرحه من حب ليلى وأزل عنه هذا الجنون ، فقال قيس أيها الإله الحى القادر على كل شىء إنى تائب إليك من جميع الخطايا والذنوب إلا عن حب ليلى وذكرها فإنى لا أتوب ، ثم تأوه وتنهد وتنفس الصعداء وأنشد :

دعا المحرمون الله يستغفرونه ... بمكة شعثاً كى تمحى ذنوبها
وناديت : يارحمن أول سؤلتى ... لنفسى ليلى ثم أنت حسيبها
يقولون تب عن حب ليلى وذكرها ... وتلك لعمرى توبة لا أتوبها
يقر لعينى قربها ويزيدنى ... بها عجباً من كان عندى يعيبها
فيا نفس صبراً لست والله فاعلمى ... بأول نفس غاب عنها حبيبها

فلما سمع أبوه هذه الأبيات انهملت منه العبرات ثم أخذه بيده إلى محمل من الرجال وسأله أن يدعو له بالفرج والخلاص من هذه الحال ، فلما أخذ الناس فى الدعاء له أنشد وقال :

ذكرتك والحجيج له ضجيج ... بمكة والقلوب لها وجيب
فقلت ونحن فى بلد حرام ... به لله أخلصت القلوب
أتوب إليك يا رحمن مما ... جنيت فقد تكاثرت الذنوب
وأما من هوى ليلى وتركى ... زيارتها فإنى لا أتوب
فكيف وعندها قلبى رهين ... أتوب إليك منها أو أنيب

فرق أبوه ، ثم إنه ترك الباه والحرم وانهزم وقصد البرارى والآكام

فتبعه أبوه وجماعة من قومه حتى أدركوه . وأرادوا أن يربطوه بالحبال ويكتفوه ، فقال لهم بالله عليكم تمهلوا على قليلا فإن قلبي أضحى عليلا ثم صاح صيحة عظيمة وأنشد يقول :

أحقاً عباد الله أن لست صادرا ولا وارداً إلا عـلى رقيب
ولا جالساً وحدى ولا فى جماعة من الناس إلا قيل أنت مريب
وهل ريبة فى أن تحن نجيبة إلى إلفها أو أن يحن نجيب
وكيف أعزى القلب بعد فراقها وأنى على طول الزمان حبيب

(وقال أيضاً)

إلى الله أشكو فقد ليلى كما شكا إلى الله فقـــد الوالدين يتيم
يتيم جفاه الأقربون فعظمه كسير وفقد الوالدين عظيم
بكت كبدى من فقدها وتهللت دموعى كما ضل فهو سجوم
وإن زماناً فرق الله بيننا وبينك ياليلى فذاك مشوم
دعونى فما عن رأيكم كان حبها ولـــكنه حظ لها وقسيم

(وقال أيضاً)

أيا هجر ليلى قد بلغت بى المدى وزدت على ما لم يكن بلغ الهجر
عجبت لسعى الدهر بينى وبينها فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر
فيا حبها زدنى جوى كل ليلة ويا سلوة الأيام موعدك الحشر
تكاد يدى تندى إذا ما لمستها وينبت فى أطرافها الورق الخضر
ووجه له ديباجة قرشية به تكشف البلوى ويستنزل القطر
ويهتز من تحت الثياب قوامها كما اهتز غصن البان والفنن النضر
فيا حبذا الأحياء ما دمت فيهم ويا حبذا الأموات إن ضمك القبر
وإنى لتعرونى لذكراك نفضة كما انتفض العصفور بلله القطر
تمنيت من حبى [illegible] زارت ليلى أن يكون لها الأجر

فما هو إلا أن أراها فجـــأة   فأبهت لا عرف لدى ولا نكر
فلو أن مابى بالحصى فلق الحصى   بالصخرة الصماء لانصدع الصخر
ولو أن مابى بالوحوش لمارعت   ولاساغها الماء النمير ولا الزهر
ولو أن مابى بالبحار لما جرت   بأمواجها بحر إذا زخر البحر

(قال الراوى) فبكى أبوه شفقة عليه وهطلت دموعه على وجنتيه ، ثم اعتنقه وقبله بين عينيه وقال له ياولدى إلى متى وأنت فى هذا الشقاء العظيم والبلاء الجسيم ، أماكفاك الجولان فى القفار وعدم الهجوع والقرار وسهر الليـل والنهار ، حتى عدمت النشاط وصرت كل يوم فى ضعف وانحطاط ، فإن بقيت على مثل هذه الحال لاتزال فى انهزال وانحلال لأنه ليس فى ذلك إلا إضاعة العمر والمصير إلى المهالك ، فعد معى الآن إلى بنى عامر وكن منشرح الصدر مطمئن الخاطر وأنا أتلافى هذه القصة وأزوجك بليلى وأزيل عنك هذه الغصة قال :

ومازال أبوه يشاغله بالأحاديث اللطيفة والعبارات الظريفة إلى أن راق ولان ورجع معه إلى الأوطان وزالت عنه الغموم والأحزان وفرح به الأهل والخلان وصار عند أبيه فى أعلى درجة وأرفع مكان ، فهذا ماكان منه وماجرى له من مكابدة العشق وحر الصبابة والوله . وأما من كان من ليلى فإنه قد شاع ذكرها بالآفاق وتحدث فيها الناس فى الحجاز وبلاد نجد والعراق ، وتناشدوا ماقال فيها قيس من الأشعار الرقاق ، التى لم يسبقه إليها أحد من فحول الشعراء والعشاق ، فكان كل واحد يود أن ينظر ويتمنى أن يراها ويبصرها فترادفت عليها الخطاب وكثرت عليها الطلاب ودخلوا على أبيها فى ذلك من كل باب ، وكان من جملتهم رجل من بنى ثقيف يقال له سعد بن المنيف وكان أعظم من طلبها قدراً وأفخمهم ذكرا فاستشار الأب ابنته ليلى وأظهر له رغبته فى ذلك المولى وقال لها قد انتشر صيتك فى بلاد العرب

وخطبك من السادات أصحاب المناصب والرتب ، وأنا أصد كل طالب ولا أصغى لخطبة خاطب خوفاً من زوج ذميم الأخلاق قبيح السيرة مر المذاق لا تقدرين على معاشرته وتتعبين فى مرافقته ، إلى أن خطبك هذا الإنسان وهو من أكابر هذا الزمان وعمدة الزوات والأعيان كثير المال محمود الخصال قد تحلى بالأدب والجمال واتصف بالهمة العلية والكمال وقد أجبته إلى هذا السؤال وأزوجك إياه دون بقية الرجال لأنه لابد للمرأة من زوج يلمها فيسترها ويفرج همها ، فلما سمعت ليلى من أبيها ذلك الخطاب ، أظهرت الكدر والاكتئاب وعظم عليها ذلك الأمر واكتوى قلبها بلهيب الجمر لأن هذا الخبر لا يوافق غرضها ولا يشفى غلتها ومرضها لأنها كانت تحب قيساً وتميل إليه ولا يستقر خاطرها إلا عليه نظراً لما بينهما من المحبة القديمة والصداقة القويمة فأنت ولم تقبل وفضلت حلول الأجل وقالت هذا أمر لا يتم أبداً ولو مت قهراً وكمداً ، فلما سمع كلامها وعلم مافى ضميرها ومرامها تهددها ودار به الغيظ ، فلطمها فاجتمع عليه الجيران والأهل والخلان فلما رأت ماحل بها من الهوان وإن موج البلايا أحاط بها من كل مكان أجابت سؤله بالكره والإجبار لا بالطوع والاختيار ثم ندمت على زواجها غاية الندم وجرى قلم القضاء بما حكم ، وصارت محبتها له تكلفاً ورؤيتها إياه تعسفاً فكان لا يقر لها قرار ولا يطيب لها عيش لا بالليل ولا بالنهار . قال ولما بلغ قيساً هذا الخبر اضطرب وتحرق قلبه والتهب واستولى عليه الجنون بعد الهدوء والسكون وأنشد يقول :

وقد خبرونى أن ليلى تزوجت ... ولا بد لى من أن ألاقى حليلها
فإن كان مثلى لم ألمها على الهوى ... وإن كان دونى بئس ماقد قضى لها
وإن كان من أوباش ماحوت القرى ... لقد تعست ليلى وأضنت خليلها

(وقال أيضاً)

حبيب نأى عنى الزمان بقربه فصيرنى فرداً بغير حبيب
فلى قلب محزون ونفس مدله ووحشة مهجور وذل غريب
فياحقب الأيام هل فيك مطمع لرد حبيب أو لدفع كروب

ثم خنقته العبرة وزادت عليه الحال ، فخرج يهيم فى الصحارى والتلال ويطوف فى قلل الجبال ويتحمل المشقات والأثقال ، ويقتحم الموارد حتى ضعف جسمه من شدة الانتحال . وجف جلده على عظمه لقوة الهزال فشق على الأهل والجيران والأصدقاء والخلان وقالوا لأبيه لو كنت تحمله وتعرضه على طبيب ربما انتفع بعلاجه وتعود صحته إليه عن قريب ، فامتثل وخرج إلى الصحراء فى طلبه حتى اجتمع به ، فلاطفه بالكلام ولاقاه بالبشاشة والإكرام ثم إنه سار به إلى طبيب فى تلك الأطراف يقال له علقمة بن عساف وهو فى بلاد العرب مشهور ويعالج كل مجنون ومسحور ، فلما دخل عليه حدثه بقصة ولده على التمام وما هو فيه من العشق والغرام وكيف أنه قد حمل نفسه ما لا يراه إلى أن أهلكه سقامه وأصبح [illegible] عبرة لمن يراه بعد ما كان فريد زمانه ووحيد دهره وأوانه وفاق بالفصاحة والآداب سائر أقرانه ، فعند ذلك أخذ الطبيب يسقيه شربة بعد شربة ويكررها فى الأحيان ، فلما أكثر [illegible] المقال أنشد وقال :

ألا يا طبيب الجن ويحك داونى فإن طبيب الإنس أعياه دائيا
أتيت طبيب الإنس شيخاً مداوياً بمكة يعطى فى الدواء الأمانيا
فقلت له ياعم حكمك فاحتكم إذا ما كشفت اليوم ياعم ما بيا
[illegible] وشرح فيه سلوة و[illegible]
نفثت [illegible] أعوذ برب الناس منك مداويا
فقالت شفاء الحب أن تلصق الحشا بأحشاء من تهوى إذا كنت خاليا

قال الطبيب نعم ليس للعاشق الكئيب دواء إلا منادمة الحبيب ، فإذا حصل على ذلك الغرض زال عنه ذلك المرض هذا وقيس يعض على لسانه وشفتيه حتى كاد من فرط الحزن يقطعهما ، ثم نهض وخرج على وجهه هائماً فى الفلوات ، فبينما هو يدور رأى ناراً فى بعض الجهات فدنا ، وإذا حولها قوم رعاة فأنشد وقال :

رعاة الليل ما فعل الصباح ... وما فعلت أوائله الملاح
وما بال النجوم معلقات ... بقلب الصب ليس لها براح
كأن القلب ليلة قيل يغدى ... بليلى العامرية أو يراح
قطاة عزها شرك فباتت ... تجاذبه وقد علق الجناح
رعاة الليل كونوا كيف شئتم ... فقد أودى بى الحب المتاح

(وقال أيضاً)

ذكرت عشية الصدفين ليلى ... وكل الدهر ذاكرها جديد
إذا حال الغراب الجون دونى ... فقلبى إلى ليلى بعيد
على ألية إن كنت أدرى ... أينقص حب ليلى أو يزيد
لها فى طرفها لحظات حتف ... تميت بها وتحيى من تريد
وإن غضبت رأيت الناس هلكى ... وإن رضيت فأرواح تعود

(وقال أيضاً)

أقول لأصحابى وقد طلبوا الصلا ... تعالوا اصطلوا إن خفتم القر من صدرى
فإن لهيب النار بين جوانحى ... إذا ذكرت ليلى أحر من الجمر
فقالوا نريد الماء نسقى ونستقى ... فقلت تعالوا فاستقوا الماء من نهرى
فقالوا وأين النهر قلت مدامعى ... سيغنيكم دمع الجفون عن الحفر
وقالوا ولم هذا فقلت من الهوى ... فقالوا هداك الله قلت اسمعوا عذرى
ألم تعرفوا وجهاً لليلى شعاعه ... إذا برزت يغنى عن الشمس والبدر

تمرّ بوهمي خاطر فيؤودها ويجرحها دون العيان لها فكري
منعمة لو قابل البدر وجهها لكان له فضل مبين على البدر
هلالية الأعلى واضحة الذرى مرجرجة السفلى مهفهفة الخصر
مسية هيفاء مهضومة الحشا موردة الخدين واضحة الثغر

مدملجة الساقين بضّ بضيضة ... مفلجة الأنياب مصقولة الثغر
فقالوا أمجنون فقلت موسوس ... أطوف بظهر البيد قفراً إلى قفر
فلا ملك الموت المريح يريحني ... ولا أنا ذو عيش ولا أنا ذو صبر
وصاحت وتلك البين منها حمامة ... تغنت بليل في ذرى ناعم نضر
على دوحة بين تحت أصولها ... نواقع ماء مده رصف الصخر
مطوقة طوقاً ترى في خطابها ... أصول سواد مطمئن على النحر
أثبت أعلى الصوت منها فهيجت ... فؤاداً معنى بالمليحة لو تدري
وقلت لها عودي فلما ترنمت ... تبادرت العينان سحاً على الصدر
كأن فؤادي حين جد مسيرها ... جناح غراب رام نهضاً إلى الوكر
فودعتها والنار تقدح في الحشا ... وتوديعها عندي أمر من الصبر
وراحت كأني يوم راحت جنازة ... بقيت دم الحبات حين انقضى عمري
أبيت صريع الحب دام من الهوى ... وأصبح مروع الفؤاد من الصدر
رمتني يد الأيام عن قوس غدره ... بسهمين في أعشار قلبي وفي نحري
بسهمين مسمومين من رأس شاهق ... فغادرت لحم الترائب والنحر
[illegible] دعني في الهوى [illegible] ... [illegible] ولا أني لا يزل [illegible]
فلو كنت ماء كنت من ماء مزنة ... ولو كنت نوماً كنت من غفوة الفجر
ولو كنت ليلاً كنت ليل تواصل ... ولو كنت نجماً كنت بدر الدجى يسري
عليك سلام الله يا غاية المنى ... وقاتلتي حتى القيامة والحشر

وقال أيضاً

زعمت ليلى بأني لا أحبها ... بلى وليالي العشر والشفع والوتر
بلى والذي لا يعلم الغيب غيره ... بقدرته تجري السفائن في البحر
بلى والذي [illegible] من الطير عنده ... وعظم أيام الذبيحة والنحر
لقد فضلت ليلى على الناس مثل ما ... على ألف شهر فضلت ليلة القدر

تداويت عن ليلى بليلى من الهوى   كما يتداوى شارب الخمر بالخمر
إذا ذُكرت ليــــلى أسر بذكرها   كما انتفض العصفور من بلل القطر
مفلجة الأنياب لو أن ريقها   يداوى به الموتى لقاموا من القبر
هى البدر حسناً والنساء كواكب   فشتــان ما بين الكواكب والبدر
يقولون مجنون يهيم بذكرها   ووالله ما بى من جنون ولا سحر
إذا ما قرضت الشعر فى غير ذكرها   أبى وأبيكم أن يطاوعنى شعرى
فلا نعمت بعدى ولا عشت بعدها   ودامت لنا الدنيا إلى ملتقى الحشر
عليها سلام الله من ذى صبابة   وصب معنى بالوساوس والفكر
ليالى أعطيت البطالة مقودى   تمر الليالى والسنون ولا أدرى
مضى لى زمان لو أخير بينه   وبين حياتى خالداً أبد الدهر
لقلت ذرونى ساعة وكلامها   على غفلة الواشين ثم اقطعوا عمرى

(وقال أيضاً)

أنيرى مكان البدر إن أفل البدر   وقومى مقام الشمس ما استأخر الفجر
ففيك من الشمس المنيرة ضوؤها   وليس لها منك التبسم والثغر
بلى لك نور الشمس والبدر كله   ولا حملت عينيك شمس ولا بدر
لك المشرق اللألاء والبدر طالع   وليس لها منك الترائب والنحر
ومن أين للشمس المنيرة بالضحى   بمكحولة العينين فى طرفها فتر

(قال الراوى) وأقام قيس مع الرعيان نحو ساعة من الزمان وهو ينشد [illegible] ويبكى بكاء [illegible] ثم ترك المكان وقصد بعض الهضاب وصار يتمرغ على [illegible] ويحثو بالتراب [illegible] وفى مثل ذلك الأوان إذ مر به [illegible] من [illegible] الأحياء وفى صحبته جماعة من الخدم والغلمان فقال له [illegible] فلما رآه على تلك الحالة أخذته الدهشة [illegible] فقال له هذا مجنون بنى عامر

الذى فاق بالفصاحة والنظام على كل أديب وشاعر ، وكان قد عشق جارية في هذه الأيام يقال لها ليلى بنت المهدى بن عصام وتعلق قلبه بحبها وهام ؛ وهجر الأهل والأحباب وقصد البرارى والهضاب ، واختار القفار وطنا واتخذها لنفسه سكنا ، فقال نوفل : قد كنت أحب أن أنظر هذا الرجل وألقاه وأحظى برؤياه لأنى سمعت كثيراً عنه فكيف لى بالدنو منه قال أذكر له ليلى فإذا ذكرتها أفاق وصفا خاطره وراق ، وأنشدك من أشعاره البديعة ما لم يسبقه إليه أحد من شعراء مضر وربيعة . فعند ذلك تقدم نوفل إليه وسلم عليه ، وقال له بحياة ليلى التى هى عندك أعظم من كل شىء شنف بنفائس أشعارك أذنى لأنه قد بلغنى أنك أفصح الناس كلاما وأجودهم شعراً ونظاما ، فبكى قيس وتمثل لما سمع كلام نوفل ، وأنشد من فؤاد متبول القصيدة التى قالها فى التمدين :

تذكرت ليلى والسنين الخواليا ... وأيام لا نخشى على اللهو ناهيا

ويوم كظل الرمح قصرت ظله ... بليلى فلهانى وما كنت لاهيا

بثمدين لاحت نار ليلى وصحبتى ... بذات الغضى تزجى المطى النواجيا

فقال بصير القوم ألمحت كوكبا ... بدا فى سواد الليل فرداً يمانيا

فقلت له بل نار ليلى توقدت ... بعليا تسامى ضوؤها فبداليا

فليت ركاب القوم لم تقطع الغضى ... وليت الغضى ماشى الركاب لياليا

فياليل كم من حاجة لى مهمة ... إذا جئتكم بالليل لم أدر ماهيا

خليلى أن لا تبكيانى ألتمس ... خليلا إذا أنزفت دمعى بكى ليا

فما أشرب الأنقاع إلا صبابة ... ولا أنشد الأشعار إلا تداويا

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما ... يظنان كل الظن أن لا تلاقيا

لحا الله أقواما يقولون إننا ... وجدنا طوال الدهر للحب شافيا

وعهدى بليلى وهى ذات مؤصد ... ترد علينا بالعشى المواشيا

فشب بنو ليلى وشب بنو ابنها ... وأعلاق ليلى فى فؤادى كما هيا
إذا ما جلسنا مجلساً نستلذه ... تواشوا بنا حتى أمل مكانيا
سقى الله جارات لليلى تباعدت ... بهن النوى حيث احتللن المطاليا
ولم ينسنى ليلى افتقار ولا غنى ... ولا توبة حتى احتضنت السواريا
ولا نسوة صبغن كبداء جلعد ... لتشبه ليلى ثم عرضنها ليا
خليلى لا والله لا أملك الذى ... قضى الله فى ليلى ولا ما قضى ليا
قضاها لغيرى وابتلانى بحبها ... فهلا بشىء غير ليلى ابتلانيا
وخبرتمانى أن تيماء منزل ... لليلى إذا ما الصيف ألقى المراسيا
فهذى شهور الصيف عنا قد انقضت ... فما للنوى ترمى بليلى المراميا
فلو أن واش باليمامة داره ... ودارى بأعلى حضرموت اهتدى ليا
وماذا لهم لا أحسن الله حالهم ... من الحظ فى تصريم ليلى حباليا
وقد كنت أعلو حب ليلى فلم يزل ... بى النقض والإبرام حتى علانيا
فيارب سو الحب بينى وبينها ... يكون كفافاً لا على ولا ليا
فما طلع النجم الذى يهتدى به ... ولا الصبح إلا هيجا ذكرها ليا
ولا سرت ميلا من دمشق ولا بدا ... سهيل لأهل الشام إلا بدا ليا
ولا سميت عندى لها من سمية ... من الناس إلا بل دمعى ردائيا
ولا هبت الريح الجنوب لأرضها ... من الليل إلا هبت الريح جنبيا
فإن تمنعوا ليلى وتحموا بلادها ... على فلن تحموا على القوافيا
فأشهد عند الله أنى أحبها ... فهذا لها عندى فما عندها ليا
قضى الله بالمعروف منها لغيرنا ... وبالشوق منى والغرام قضى ليا
وإن الذى أملت يا أم مالك ... أشاب فويدى (١) واستهان فؤاديا
أعد الليالى ليلة بعد ليلة ... وقد عشت دهراً لا أعد اللياليا

(١) فود الرأس : جانبه .

وأخرج من بين البيوت لعلني أحدث عنك النفس بالليل خاليا
أراني إذا صليت يممت نحوها بوجهي وإن كان المصلى ورائيا
وما بي إشراك ولكن حبها وعظم الجوى أعيا الطبيب المداويا
أحب من الأسماء ما وافق اسمها وأشبهه أو كان منه مدانيا
خليلي ليلى أكبر الحاج والمنى فمن لي بليلى أو فمن ذا لها بيا
لعمري لقد أبكيتني يا حمامة العقيق وأبكيت العيون البواكيا
خليلي ما أرجو من العيش بعدما أرى حاجتي تشرى ولا تشترى بيا
وتجرم ليلى ثم تزعم أنني سلوت ولا يخفى على الناس ما بيا
فلم أر مثلينا خليلي صبابة أشد على رغم الأعادي تصافيا
خليلان لا نرجو اللقاء ولا نرى خليلين لا يرجون إلا تلاقيا
وإني لأستحييك أن تعرض المنى بوصلك أو أن تعرضي في المنى ليا
يقول أناس علّ مجنون عامر يروم سلواً قلت إنى لما بيا
بي اليأس أو داء الهيام أصابني فإياك عني لا يكن بك ما بيا
إذا ما استطال الدهر يا أم مالك فشأن المنايا القاضيات وشانيا
إذا اكتحلت عيني بعينك لم تزل بخير وجلت غمرة عن فؤاديا
فأنت التي إن شئت أشقيت عيشتي وأنت التي إن شئت أنعمت باليا
وأنت التي ما من صديق ولا عدا يرى نضو ما أبقيت إلا رثى ليا
أمضروبة ليلى على أن أزورها ومتخذ ذنبا لها أن ترانيا
إذا سرت في الأرض الفضاء رأيتني أصانع رحلي أن يميل حياليا
يميناً إذا كانت يميناً وإن تكن شمالا ينازعني الهوى عن شماليا
وإني لأستغشي وما بي نعسة لعل خيالا منك يلقى خياليا
هي السحر إلا أن للسحر رقية وإني لا ألفي لها الدهر راقيا
إذا نحن أدلجنا وأنت أمامنا كفى لمطايانا بذكراك هاديا

ذكت نار شوق فى فؤادى فأصبحت   لها وهج مستضرم فى فؤاديا
ألا أيها الركب اليمانون عرجوا   علينا فقد أمسى هوانا يمانيا
أسائلكم هل سال نعمان بعدنا   وحب إلينا بطن نعمان واديا
ألا ياحمى بطن نعمان هجتما   على الهوى لما تغنيتما ليا
وأبكيتمانى وسط صحبى ولم أكن   أبالى دموع العين لو كنت خاليا
ويا أيها القمريتان تجاوبا   بلحنيكما ثم اسجعا علانيا
فإن أنتما استطربتما أو أردتما   لحاقا بأطلال الغضى فاتبعانيا
ألا ليت شعرى [illegible] وما يا   وما [illegible] شيب [illegible] علانيا
ألا أيها الواشى بليلى ألا ترى   إلى [illegible] تشبها ولم أت [illegible]
لئن ظعن الأحباب يا أم مالك   فما ظعن الحب الذى فى فؤاديا
فيارب إذ صيرت ليلى هى [illegible]   [illegible]
وإلا فبغضها [illegible]   [illegible] الدواهيا
على مثل ليلى يقتل المرء نفسه   وإن كنت من ليلى على اليأس طاويا
خليلى إن ضنوا بليلى فقربا   [illegible] واستغفرا ليا

(قال الراوى) فلما انتهى قيس من شعره اهتز نوفل طرباً وتمايل عجباً وقال لله درك على هذه الألفاظ الرشيقة والمعانى البديعة الرقيقة، فإنها تشرح الخواطر والقلوب وتجلى عموم الكروب وتسلى المحب على فراق المحبوب، لأنك ما تركت من طرائف الغزل والنسيب وأنواع البديع فى وصف الحبيب مقالا لشاعر لبيب فهل الحب صيرك إلى ما أرى، فقال له نعم وقد ساق لى أكثر مما ترى وأنشد يقول:

أياحاجات الحى حين تحملوا   بذى سلم لاجاد كن ربيع
وخيماتك اللاتى بمنعرج اللوى   بلين بلى ما إن لهن رجوع
إلى الله أشكو نية شقت العصا   هى اليوم شتى وهى أمس جميع

فلو لم يهجنى الظاعنون لهاجنى ... نوائح ورق فى الديار وقوع
دعاين فاستبكين من كان ذا هوى ... نوائح لا تجرى لهن دموع
لعمرى إنى يوم جرعاء مالك ... لعاص لأمر العاذلين مطيع
وما كاد قلبى بعد أيام جاوزت ... إلى بأجوار الندى يريع
وإن انهمال الدمع ياليل كلما ... ذكرتك يوماً خالياً لسريع
ندمت على ما كان منى ندامة ... كما ندم المغبون حين يبيع
لعمرك ما شيء سمعت بذكره ... كبينك يأتى بغتة فيروع
عدمتك من نفس شعاع فاننى ... نهيتك عن هذا وأنت جميع
فقربت لى غير القريب وأشرفت ... هناك ثنايا ما لهن طلوع
يضعفنى حبيك حتى كأننى ... من الأهل والمال التليد نزيع
وحتى دعانى الناس أحمق مائقاً ... وقالوا تبوع للضلال مطيع

(قال الراوى) ثم تزايدت حسراته وتصاعدت زفراته ، فنهد وبكى وتأوه وتشكا وقال جفانا الأصحاب وتخلى عنا الاهل والأحباب فيالله من أمر عظيم وخطب جسيم ، فقال له نوفل اعلم أيها الأخ المفضل إن دمت على هذه الحال فإنك هالك لا محالة فتب إلى الله وارجع إليه واعتمد فى أمورك عليه ، يكشف عنك هذا العرض ويزيل من قلبك هذا المرض ؛ فأجابه قيس قائلا ياأخى كيف أطيق الصبر وقد استعل قلبى من الهوى بجمر . فبالله عليك ذهب عنى ودعنى أقاسى العذاب وأقتحم موارد الهلاك والعطب ، لأنك كلما عزيتنى وسليتنى ونصحتنى ازدادت نيرا محبتى وقويت إليها رغبتى ثم غاب عن الوجود ساعة فلما أفاق أنشد وقال

أبياتك عنى فانى قد ثملت صبا ... أما ترى الجسم قد أودى به العطب
للہ قلبى ماذا قد أتيح له ... من [illegible] والأوجاع والوصب
ضاقت على بلاد الله ما رحبت ... [illegible] فهل فى الأرض مضطرب

البين يؤلمنى والشوق يجرحنى — والدار نازحة والشمل منشعب
كيف السبيل إلى ليلى وقد حجبت — عهدى بها زمناً ما دونها حجب

(وقال أيضاً)

لو سيل أهل الهوى من بعد موتهم — هل فرجت عنكم مذ متم الكرب
لقال صادقهم أن قد بلى جسدى — لكن نار الهوى فى القلب تلتهب
جفت مدامع عين الجسم حين بكى — وإن سبا سمع عين الروح تنسكب

(وقال أيضاً)

وقالوا لو تشاء سلوت عنها — فقلت لهم فإنى لا أشاء
وكيف وحبها علق بقلبي — كما علقت بأرشية دلاء
لها حب تنشأ فى فؤادى — فليس له وإن زجر انتهاء
وعاذلة تقطعنى ملاماً — وفى زجر العوازل لى بلاء

(وقال أيضاً)

إن الغوانى قد رمت دشاتها — ياليت من جهل الصبابة ذاقها
فى صدغهن عقارب يالسعنا — ما من لسعن بواجد ترياقها
إن النقاء عناق كل خريدة — كالخيزرانة لا تمل عناقها
بيض تشبه بالحقاق ثديها — من عاجه حكت الثدى حقاقها
يدعى الحرير جلودهن وإنما — يكسين من حلل الحرير رقاقها
زانت روادفها دقاق خصورها — إنى أحب من الخصور دقاقها
إن التى طرق الرجال خيالها — ماكنت زائرها ولا طراقها

(ومن نوادره) أنه تعجب رجل من سرعة بديهته وعذوبة ألفاظه وقوة وصفه وكان [illegible] فقال له أيها الخطيب والشاعر المبيب [illegible] لابد أن أراك فى هذه الحال تقاسى العذاب والنكال [illegible] فأنا أزوجك ببعض البنات الأبكار من

هي احسن واحلى من ابنة عمك ليلى ، فلما سمع كلامه جمدت عيناه ونظمت بلاياه ، وقال لاسمعت قولك أبداً ولا تركت ليلى على طول المدى ، فعند ذلك تركه ومضى وبقى قيس يهيم فى السهول والأوعار ، ينشد الأشعار ويتقوت بنبات القفار يقاسى المشقات والأخطار .

(قال الراوى) وكانت ليلى منذ تزوجت لاتنشف لها دمعة ولا تبرد لها لوعة وذلك لخوفها على قيس ووجدها به لأنها كانت مشغوفة بحبه وكان لا يقر لها قرار ولا يطاوعها اصطبار بل كانت تبكى فى الليل والنهار بدموع غزار إلى أن فار دم قلبها من فرط عشقها وحبها ، ولما طال عليها الحال أنشدت تقول من فؤاد متبول :

إذا هدأت رجلى بدأت بذكره وأحلم فى نومى به وأعيش
إذا ذكر المجنون زالت بذكره قوى النفس أوكاد الفؤاد يطيش .
ووالله ما زال الفؤاد يجنه وإن كان صدرى من هواه يجيش

قال لبيد بن عنبسة حدثنى بعض الرواة أنه قيل لليلى العامرية لئن لم تنته عن ذكره لنقتلنكما معا ، فبعثت إلى القائل على يد مولاة لها رقعة مكتوباً فيها .

توعدنى قومى بقتلى وقتله فقلت اقتلونى واتركوه من الذنب
ولا تبعوه بعد قتلى ذلة كفى بالذى يلقاه من سورة الحب

(قال الراوى) ثم استدعت بغلام من أهل الحى الذى كانت تعتمد عليه فى كل شىء وكتبت إلى قيس مع ذلك الغلام تقول :

بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم

اعلم يا ابن العم وفقك الله من عاقبة تغيير العهد أنى قد أوحشنى بعدك عن إشاراتك وقد مضى زمان وأنا مواظبة على الأحزان لا أرى طريقاً ولا قرار لمستقر ، إلى أن ضاق صدرى وقل صبرى وترادفت على

الأسقام من كثرة البكاء وقلة الأكل والطعام ، ولا شك بأن حياتى فى هذه الدنيا صارت قصيرة وأيام إقامتى يسيرة حيث لم يعد لى صبر على الفراق وقد اكتوى قلبى بنيران الاشتياق ، وما بقى فى الأمر إلا التسليم والانقياد على ما قدره علينا رب العباد ، وختمت كلامها بهذه الأبيات :

قد كنت حاذرة للدهر عارفة   أن سوف يطلبنى بالرمى مفتقدا
حتى رماني بمن قد جل عن صفتى   فما أرى لى به ويلى الغداة يدا
لقت الدواة بماء العين ثم به   كتبت ما يكتب المجهود إذ جهدا
هذا الوداع لمن روعى الفداء له   قد خفت ألا أراه بعده أبدا

ثم إنها أمرت ذلك الشاب أن يسير فى طلبه فى البرارى والهضاب وانه بانتظار الجواب فامتثل وسار وقصد الروابى والقفار ولا زال يطلبه فى جوانب البر حتى التقى به فى يوم شديد الحر قد التجأ إلى كهف جبل عظيم بالقرب من ديار بنى تميم وهو مستلق على ظهره وغارق فى بحار فكره ينشد ويقول :

أحن إلى ليلى وإن شطت النوى   بليلى كما حن اليراع المثقب
يقولون ليلى عذبتك بحبها   ألا حبذا ذاك الحبيب المعذب

(قال الراوى) فدنا منه الغلام وحياه بالسلام ولاطفه بالكلام ، وقال له أيها الشاب الظريف والأديب اللطيف ، إن محبوبتك ليلى تسلم عليك وقد أرسلتنى بكتاب إليك ، فيه ما يسر الخاطر ويشرح القلوب والنواظر ، فلما ذكرت له ليلى رجع عقله إليه واستوى جالساً على قدميه ، وتناول الكتاب وقرأه ووقف على فحواه وطرب وتنهد وكفكف دموعه وأنشد :

إذا جاءنى منها الكتاب بعينه   خلوت بنفسى حيث كنت من الأرض
فأبكى لنفسى رحمة من جفائها   ويبكى من الهجران بعضى على بعضى
وإنى لأهواها مسيئاً ومحسناً   وأقضى على نفسى لها بالذى تقضى
[illegible] تروح زماناً لا يذ[illegible]ى   وحتى متى أيام سخطك لا تمضى

ثم أجابها على كتابها يقول : من قيس بن الملوح الهائم الوامق والحبيب الصادق ، إلى سيدة الملاح وكوكب الصباح ، درة الصدف وياقوتة الشرف ؛ من قد اتصفت بالمحاسن البهية والصفات العلية والآداب السنية ليلى العامرية إنني بينما كنت متشوقاً إلى استماع أخبارك واستكشاف آثارك ، وافظك وحالك ومشاهدة أنوار جمالك ، إذ ورد إلى عزيز رسالتك الموسومة بسمات المحبة المسفرة عن ازدياد الصحبة والصداقة ، فتلقاها القلب بالفرح وزال عنه الغم وانشرح غير أنه لايخفاك ما أنا فيه من الكدر والقلق والضجر وكثرة البكاء والسهر ، وكيف إنى تركت الوطن المألوف وانفردت فى الروابى والكهوف ، أهيم مع الوحوش والغزلان وأنتقل من مكان إلى مكان ؛ وحيداً غريباً ذليلا مهانا أقاسى شراً وأحزاناً لا يستقيم لى حال ولا يرتاح لى بال ؛ حتى صرت نحيلا كالخيال وذلك من كثرة الأشواق وتباريح الهوى ومرارة الفراق ، فقاتل الله أباك الغدار وبلاه بالويل والدمار لأنه كان سبب بليتى وطردى عن أهلى وعشيرتى وما كفاه ذلك حتى أنه زوجك برجل غريب واختار البعيد على القريب وهذا شرح مابى من الشقاء والتعذيب . وإنى لك على طول الزمان حبيب .

(قال الراوى) ثم تصاعدت من أنفاسه الزفرات فختم كلامه بهذه الأبيات

أيا مهدى لى نعى الحبيب صبيحة ... بمن وإلى من جئتما تشيان
بمن لو رآه عانياً لفديته ... ومن لو رآنى عانياً لفدانى
فمن مبلغ عنى الحبيب رسالة ... بأن فؤادى دائم الخفقان
وانى ممنوع من النوم مدنف ... وعيناى من وجد الأسى يكفان

(وضمنه أيضاً)

وجدت الحب نيراناً تلظى ... قلوب العاشقين لها وقود
فلو كانت إذا احترقت تفانت ... ولكن كلما احترقت تعود
كأهل النار إذا نضجت جلود ... أعيدت للشقاء لهم جلود

(وضمنه أيضاً)

أما والذى أعطاك بطشاً وقوة ... وصبراً وأزرى بى وأنقص من بطشى
لقد محض الله الهوى لك خالصاً ... وركبه فى القلب منى بلا غش
تبرأت من كل الجسوم وحل بى ... فإن مت يوما فاطلبوه على نعشى
سلى الليل عنى هل أذوق رقاده ... وهل لضلوعى مستقر على فرشى

(وقال أيضاً)

فؤادى بين أضلاعى غريب ... ينادى من يحب فلا يجيب
أحاط به البلاء فكل يوم ... تقارعه الصبابة والنحيب
لقد جلب البلاء على قلبي ... فقلبي مذ علمت له جلوب
فإن تكن القلوب كمثل قلبي ... فلا كانت إذاً تلك القلوب

(قال الراوى) ثم إن ذلك الشاب رجع إلى ليلى بالجواب ، وأخبرها عن قيس وأحواله وما يقاسى من وجده وبلباله ، فتشوش خاطرها وتكدرت خمائرها وتضاعف همها وغمها ، وتحسرت على قيس ابن عمها ، فكانت تبكى عليه فى الليل والنهار وتنشد رقيق الأشعار ، ودامت على ذلك مدة مديدة وأياماً عديدة . قال واتفق فى وقت من الأوقات أن جاريتها رأت فى بعض الطرقات صياداً معه خمسة غربان ، فاشترتهم وأتت بهم إلى سيدتها فخرجت بهم ليلى إلى خارج البيوت وجعلت تضرب غراباً غراباً حتى يموت فتعجب زوجها واندهل . وقال لها ما الذى أحوجك إلى هذا العمل ؛ فقالت أن نعيق الغراب يدل على فراق الأحباب وتمزيق شمل الأصحاب ؛ وأن ابن عمى قيساً ذكرهم فى شعره جملة مرات ، وأمرهم أن ينوحوا على عرصات القفار وقد قال :

من أجل غربان تصيحين غدوة ... ببينونة الأحباب دمعك سافح
نعم سالت العينان من غير عبرة ... كما سال من نظم اللآلى تطارح
ألا يا غراب البين لا صحت بعدها ... وأمكن من أوداج حلقك ذابح

يروع قلوب العاشقين ذوى الهوى إذا أمنوا الشنحاج أنك صائح
وعد سواء الحب واتركه خالياً وكن رجلا واجمح كما هو جامح

تآليت أن لا أقع بغراب بعد هذا المقال إلا قتلته فى الحال ، واعلم يا هذا حفظك الله وهداك أن تزوجى إياك لم يكن رغبة فى جمالك ولا فى رفعة مقامك وكثرة مالك ، وقد كنت حلفت أن لا أتزوج بعد قيس أبداً ولو مت شوقاً وكمدا لأنه صاحبى ومعتمدى وقرة عينى ومهجة كبدى ، وحبه لا ينتزع من قلبى وجسدى ، وليس فى ذلك من عار ولا عيب ولا شنار ، لأن محبتى له لم تكن صادرة إلا عن نية صالحة وطوية طيبة ذكية الرائحة ، ولكن كتب عبد الملك بن مروان يأمر أبى بتزويجى .

فكان الأمر ولكنى سأصبر على ما رقمه القلم وأثبته الله حيث حكم . فلما سمع زوجها ذلك الخطاب اشتبه من كلامها ووقع فى اضطراب وأخذته الغيرة وداخله الشك والارتياب ، وتغيرت نيته وتقدم ضميره بالسوء إليها ، ثم انه ذهب إلى أبيها فى الحال وقص عليه ما سمعه منها من المقال : فخجل ذلك الخبيث عند سماعه هذا الحديث ، واضطرب جسمه وارتجف . وقال له لا تخف ، ثم أخذ يلاطفه بالحديث والكلام وأخبره بخبر قيس على التمام وكيف أنه حجبها عنه من سنين وأعوام وأخرج له كتاب عبد الملك بن مروان ، وقال له إن الخليفة يهدر دمه إن عاد واجتمع بها فى مكان وما زال يحدثه بمثل هذا الكلام حتى زالت عنه الشكوك والأوهام ، واشتاق إلى رؤية قيس ومنادمته ومال إلى معرفته ، وما زال يترقب الفرص إلى أن خرج ذات يوم إلى الصيد والقنص فالتقى به وهو فى روضة خضراء بالقرب من الصحراء ويقرب منه قطيع من الغزلان والوعول وهو ينظر إلى ظبية تضع خشفها وهو ينشد ويقول :

لقد أرقتنى أم خشف وإنها إذا صرع القوم الكرى لطروق

أقام فريق من أناس بودهم بذات الشرى عندى وبات فريق
بحاجة محزون كئيب فؤاده رهين ببيضات الحجال صديق

فتقدم زوج ليلى إليه وسلم عليه وأنشد يقول :

ومن عجب جنونك فى فتاة مزوجة ســـواك وأن تراها
أيا مجنون كم تهذى بليـــلى كأن الله لم يخلق سواها (١)

(قال الراوى) فصاح قيس من شدة الوجد والوسواس ، وسأل عنه بعض الناس ، فقيل له هو بعل ليلى التى تحبها وترغب قربها ، فخر مغشياً عليه ثم أفاق فأنشد يقول :

بربك هل ضممت إليك ليلى قبيـــل الصبح أو قبلت فاها
وهل رفت عليك قرون ليلى رفيف الأقحوانة فى نداها (٢)

فضحك زوج ليلى وتبسم ، وقال اللهم إذ حلفتنى فنعم ، فلما سمع قيس منه ذلك المقال اضطرب فؤاده وقبض بكلتا يديه قبضتين من الجمر ، فما فارقهما حتى سقط مغشياً عليه ، وسقط الجمر مع لحم راحتيه ، وعض على شفتيه فقطعها فقام زوج ليلى مغموما متعجباً منه .

(قال الراوى) وقد تكدر زوج ليلى وتشوش خاطره وتعكر ، وقال له احذر يا قيس من غفلات الزمان وسطوات الأخوان فإن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان قد يهدر دمك مرة ثانية إن كنت لا تنتهى عن ذكر هذه الجارية لأنك فضحتها فى الأشعار ، وهتكتها فى سائر الأقطار ، وقد أعلمتك بحقيقة الخبر فكن من ذلك على حذر . فزاد بقيس القلق والضجر وفاض دمعه على خديه وانحدر ، وقال له والله إنه منذ ثلاثة أيام بينما كنت أطوف فى بعض الآكام نادى غرابان وقالا لى وحق الملك الديان لقد

---

(١) هكذا فى الأصل ولم نجدهما فى الديوان
(٢) ذكره أبو الفرج فى الأغانى ص ٤٣ ج ٢

لقد قضى الرحمن بانقضاء أيام عبد الملك بن مروان ثم أطرق مليا وأقام مدة لا يتكلم شيئا ثم أمعن فيه النظر وأجال قداح الفكر ، وقال أقسم بجامع الشتات ومخرج النبات ، أنها سوف تصلكم الأخبار أنه قد مات ، فاندهش زوج ليلى من كلامه ، وارتد راجعاً الى خيامه ، وما مضى أكثر من ثلاثة أيام بعد ذلك الكلام ، حتى شاع الخبر بموت عبد الملك في قبائل العربان فتعجب زوج ليلى من ذلك الاتفاق الغريب والامر العجيب .

(قال الراوى) وكان أبو قيس لا يطيب له عيش ولا يرتاح له بال خوفاً على ولده من الهلاك والوبال ، لانه كان عالماً بالحال الذى هو فيه والشقاء الذى كان يؤلمه ويؤذيه . فخرج في طلبه ذات يوم مع جماعة من القوم وما زالوا يتطلبونه ... مدة ثلاثة أيام وفى اليوم الرابع التقوا به وهو على الرمال جالساً وقد أطرق برأسه إلى الأرض عابساً ، فبكى أبوه وتراءى عليه وقبله بين عينيه وقال له ياولدى ويا مهجة كبدى إلى متى وأنت في هذه الحال تقاسى الشدائد والأهوال والمشقة والإذلال ، بعد ذلك الجاه والدلال ، فأين عقلك وحكمتك وأدبك وفهمك وفصاحتك ... فقم بنا الآن نرجع الى الأوطان ، فإن الذى أنت فيه إنما هو من عمل الشيطان ، فازجره ... . فقال إنى لك سامع ولأمرك طائع إلا فى هذا الشأن خارج عن حد الإمكان ، ثم فاضت عيناه بالدموع وأنشد من فؤاد مصدوع :

الله يعلم أن النفس هالكة ... باليأس منك ولكنى أعنيها
منيتك النفس حتى قد أضر بها ... واستيقنت خلفاً مما أمنيها
وساعة منك ألهوها وإن قصرت ... أشهى إلى من الدنيا وما فيها (١)

قال له أبوه اذكر الله في نفسك قبل حلول رمسك ، فقال قد صدقت وبالحق نطقت وأنشد يقول :

---

(١) ذكرها صاحب الاغانى ص ٨٣ ولم أجدها فى الديوان.

دعوت إلهى دعوة ما جهلتها   وربى بما تخفى الصدور بصير
لئن كنت تهدى برد أنيابها العلا   لأفقر منى . إننى افقـير
وقد شاعت الأخبار أن قد تزوجت   فهـل يأتينى بالطلاق بشير

﴿ وقال أيضاً ﴾

ألا تلك ليلى العامرية أصبحت   تقطع إلا من ثقيف حبالها
هم حبسوها محبس البدن وابتغى   بها المال أقوام ألا قل مالها
إذا التفت والعيس صعر من البرى   بنخلة جلت عبرة العين حالها

﴿ وقال أيضاً ﴾

عفا الله عن ليلى وإن سفكت دمى   فإنى وإن لم تجزنى غير عاتب
عليها ولا مبد لليلى شكاية   وقد يشتكى المشتكى إلى كل صاحب
يقولون تب عن ذكر ليلى وحبها   وما خلدى عن حب ليلى بتائب

(قال الراوى) ثم إنه تركهم وذهب وهبط فى ذلك البر راهباً وما زال يجول من مكان إلى مكان حتى وصل إلى جبل يقال له ثوبان وكان كثيراً ما يجتمع بليلى فى ذلك المكان ، فلما رآه تذكر ايام الصبا وتجددت عليه الهموم والأحزان وأنشد وقال :

وأجهشت للتوبان حتى رأيته   وهلل للرحمن حـين رآنى
وأذريت دمع العين لما رأيته   ونادى بأعلى صوته ودعانى
فقلت له أين الذين عهدتهم   حواليك فى خصب وطيب زمان
فقال مضوا واستودعونى بلادهم   ومن ذا الذى يبقى مع الحدثان
وإنى لأبكى اليوم من حذرى غداً   فراقك والحيان مؤتلفان
سجالاً وتهتاناً ووبلا وديمة   وسحاً وتسجاماً إلى هملان

ثم إنه بكى من فؤاد مجروح ، وإذا به يسمع صوت حمامة تندب إلفها وتنوح فأنشد:

لقد هتف فى جنح ليلى حمامة   على فنن وهنا وإنى لنائم

فقلت اعتذار عند ذاك وإننى   لنفسى فيما قد أتيت للائم

أأزعم أنى عاشق ذو صبابة   بليلى ولا أبكى وتبكى البهائم

كذبت وبيت الله لو كنت عاشقاً   لما سبقتنى بالبكاء الحمائم

﴿ وقال أيضاً ﴾

أيا جبل الثلج الذى فى ظلاله   غزالان مكحولان مؤتلفان

غزالان شبا فى نعيم وغبطة   ورغدة عيش ناعم عطران

أرغتهما ختلا فلم أستطعهما   ففرا وشيكا بعد ما قتلانى

خليلى أما أم عمرو فمنهما   وأما عن الأخرى فلا تسلانى

فما صاديات حمن يوماً وليلة   على الماء دون الورد هن حوان

يرين حباب الماء والموت دونه   وهن لأصوات السقاة روانى

بأكثر منى حسرة وصبابة   إليها ولكن الفراق عرانى

خليلى إن ميت و مكيم   لديك بحاجى فاقضيا ودرانى

أقل حاجتى وحدى فيارب حاجة   قضيت على هول وخوف مكان

وإن أحق الناس منى تحية   مشرقاً فاه من او يشا تتغنى

ومن قادنى للموت حتى إذا صفت   مشاربه سم ارتعف معى

ثم إنه ترك المكان وقصد الروابى والكثبان وهو ينشد الأشعار خسان ريبيم مع الوحوش والغزلان .

واتفق أن رجلا من بنى أسد خرج ذات يوم من البلد طالباً البرارى والقفار وكان ذلك فى عام أشهب أمسكت السماء فيه مطرها والأرض نبتها . فرحل بناقته وركب المصعب والذلول تردده أرض وتحمله أخرى قال الرجل وما زلت أقطع السهول والأوعار حتى صرت فى بلد من حيفة رفعت فى روضة معشبة كثيرة الأنوار والرياحين والأزهار فدعتنى نفسى إلى الإلمام بها وودت أن أقيم فيها وأتنزه فى بعض نواحيها مرات و

أرجاء تلك الأزاهير المونقة والأنوار البديعة المورقة، وأنخت ناقتي إلى قنوان شجرة صغيرة وجلست منها، فبينما أنا كذلك أتأمل في تلك الروضة والمروج الطويلة العريضة إذ سقط رجل من جراد كثير الأعداد على ذلك الواد فافترشت جنباتها وأرضها وأخذت طولها وعرضها. فظلت متعجباً مما أرى.

ثم رميت نظري في نواحيها، وإذا أنا بشخص أقبل من صدر البرية ناحل الجسم عار من اللحم، وما على جسده غير شعر منسدل على صدره، وزغبات على عكمة، فرأيته منصرفاً متمايلاً تدي خوفاً ووجلا وخشيت أن أكون على شرف الهلاك، وما شككت أنه شيطان مارد فلما دنا مني أنشد يقول:

حب البنا بك يا جراد	أرخص وإن جاءت بك الأكباد
وصاقت الأصدار والأوراد	لم يكن مثل لما دتاد

ولا لابناء السبيل الزاد

فقلت له بنفسي أنت أم جني؟ فأنشأ يقول:

إليك عني فإني هائم صب	أما ترى الجسم قد أودى به العطب

(وقال أيضاً)

فيا قلب مت حزناً ولا تك جازعاً	فإن جزوع القوم ليس بخالد
هويت فتاة كالغزالة وجهها	وكالشمس يسبي دلها كل عابد
ولي كبد حرى وقلب معذب	ودمع حثيث في الهوى غير جامد
وآية وجد الصب تهطال دمعه	ودمع شجي الصب أعدل شاهد
على ما انطوى من وجده في ضميره	على الآنسات الناعمات الخرائد
فياليت أن الدهر جاد بزجرة	وهيهات أن الدهر ليس بعائد
إليك فعز النفس واستشعر الأسى	فحبك ينمي زائداً غير بائد

وقد شسعت ليلى وشط مزارها   وغيرها عن عهدها قول حاسد
فيا أسفا حتىام قلبي معذب   إلى الله أشكو طول هذي الشدائد

قال الرجل ثم خر مغشياً عليه ، فبادرت إلى الماء ونضحت على وجهه فأفاق بعد حين ثم تنفس الصعداء فأنشأ يقول :

بلادي لو بهمت بسطت عذري   إذا ماالقلب عاوده نزوع   بها الحين المباح لمن بغاه
وجرع للغريب به مريع   إلى أهل الكرام تشاق نفسي   فهل يوماً إلى وطني أريع

قال الرجل فتعجب من شدة عشقه وغرامه ورقة شعره وعذوبة كلامه فقلت له : ويحك يا أخا العرب وسيد أهل الفصاحة والأدب إني أراك في عذاب أليم وخطر عظيم وحال سقيم ، ولا شك أن هذا البلاء الذي أنت فيه والعناء الذي أنت تقاسيه ناتج من هواجس رديئة ووساوس شيطانية فبادر الآن واستعمل فكرك الرزين وتب إلى رب العالمين فهو يكشف عنك هذا الداء الدفين لأنه سميع مجيب ، ومن اتكل عليه فلا يخيب . فلما سمع كلامي بكى من عظم جواه حتى تزلزلت أركان أعضائه وأنشد يقول :

يجيشون في ليلى علي ولا أرى   [illegible] ليلى حراماً ولا حلا
سوى أن حباً لو يشاء أقامها   [illegible] تبتغي ظلا لكان لنا ظلا
ألا حبذا أطلال ليلى على البلى   [illegible] من [illegible] وإن تلا
فما يتمادى العهد إلا تجددت   مودتها عندي وإن زعمت أن لا

فقلت له : ويحك استشعر الصبر ، واستبق مودة الحبيب بكتمان الحب . واعلم أنك لا تصل إلى الحبيب إلا بالستر ونفيك الشنعة . فإن التهتك يقطع موارد الغبطة ، وليس للمهتوك ألفة والمستور طوبى [illegible] الغبطة ، فقال :

لقد هم قيس أن يزج بنفسه   ويرمي بها من ذروة الجبل الصعب
فلا غرو أن الحب للمرء قاتل   يقلبه ما شاء جنباً إلى جنب
أناخ هوى ليلى به فإذا به   ومن ذا يطيق الصبر عن محمل الحب
فيسقيه كأس الموت قبل أوانه   ويورده قبل الممات إلى الترب

قال فأقسمت عليه أن ينشدني أحسن ما قاله في وصف المحاجر والنهود والأطراف والخدود فأنشد يقول :

[illegible]

لنا أصبو بالعشى وبالضحى إلى خرد ليست بسود ولا عصل
منعمة الأطراف هيف بطونها كواعب تمشى مشية الخيل فى الوحل
وأعناقها أعناق غزلان رملة وأعينها من أعين البقر النجل
وأثلاثها العليا كأن فروعها وأثلاثها الوسطى كثيب من الرمل
وأثلاثها السفلى برادي مناحل عناقيد تغذى بالدهان وبالعسل
وترمى فتصطاد القلوب عيونها وأطرافها ما تحسن الرمى بالنبل
وزرعن الهوى فى القلب ثم سقينه صبابات ماء الشوق بالأعين النجل
رعابيب ما صدن القلوب وإنما النبل ريشت بالفتور وبالكحل
تقيم دماء العاشقين مطلة بلا قود عند الحسان ولا عقل
ويقتلن أبنــاء الصبابة عنوة أما فى الهوى يارب من حكم عدل

فقلت هل لك من مزيد أيها الشاعر المجيد ؟ فقال نعم وأنشد :

ومفروشة الخدين ورداً مضرجاً إذا جمشته العين عاد بنفسجا
شكوت إليها طول ليلى بعبرة فأبدت لنا بالغنج دراً مفلجا
فقلت لها منى على بقبلة أداوى بها قلبى فقالت تغنجا
بليت بردف لست أسطيع حمله يجاذب أعضائى إذا ما ترجرجا

قال الرجل ثم قطع شعره وذهب وطلب الهزيمة والهرب ، فاندهلت من أمره ونهضت مسرعاً فى أثره طالباً الزياده من شعره ، فلم أدركه إلا بعد الجهد وقد تعلق بحبال نجد فرجعت عنه وقد تعجبت منه .

وحدث رجل آخر من بنى كنانة وهو من أهل الصدق والأمانة ، قال خرجت فى بعض الأسفار أطوى الفيافى والقفار والسهول والأوعار ، فانتهى بى المسير إلى غدير كبير كأنه البحر المستدير فرأيت فى بعض نواحيه جارية كأنها البدر التمام وفى يدها بردة وقصعة مملوءة بالطعام ، فتقدمت إليها وسلمت عليها فردت على السلام بأفصح كلام فبينما أنا أتأمل فيها وأنظر إلى حسن معانيها إذ أقبلت عانة من الغزلان طالبة الماء من ذلك المكان ، وفى أوائلها رجل عريان وهو نحيف الجسم كئيب النفس قد اسود جلده من لفح البرد وحر الشمس فأومأت الجارية إليه وصاحت عليه وأنشدت تقول :

وخبرتمانى أن تيماء منزل ... لليلى إذا ما الصيف ألقى المراسيا
فهذى شهور الصيف عنا قد انقضت ... فما للنوى ترمى بليلى المراميا

فلما سمع كلامها تقدم إليها حتى صار أمامها فألقت نفسها عليه وقبلته وأعطته البردة فأخذها وستر عورته ثم ناولته الطعام، فجلس وأكل وهو يبكى ويتململ، قال الرجل فتعجبت من ذلك غاية العجب، والتفت الى الجارية وقلت لها ياحرة العرب من يكون هذا الغلام وماذا جرى عليه من الأحكام لأنى أرى صفته غريبة وحالته رديئة كئيبة، فقالت هذا والله ياأخى، شقيق ومهجة فؤادى وكبدى وما كانت هذه الصفة صفته ولا هذه الحالة حالته وإنما كان وحيد عصره ونتيجة دهره، مشكور السيرة طاهر السريرة فصيح الكلام رفيع المقام محبوباً من الخاص والعام، وقد اشتهر بالكرم وعلو الهمم ومكارم الأخلاق والشيم، وانتشر صيته بين العرب والعجم، واتفق أنه عشق جارية فافتتن بها وهام، وتواترت عليه الأسقام من كثرة الحزن وقلة الأكل والمنام، حتى انتحل جسمه واعتراه الجنون ومضى عليه مثل ذلك سنون، وهو يهيم مع الوحوش فى البرارى والهضاب ولا يقر له قرار ولا يلتفت إلى خطاب، إذا ذكرت له زالت عنه الوحشة وعاد عقله إليه وذهبت عن قلبه الرعشة قال الرجل ولما انتهت من كلامها التفت إلى المجنون، وقال أيها الرجل المسافر إلى أين أنت سائر، وإلى أية حلة تقصد من حلل العشائر، فقلت له مرادى أن أسير إلى حى بنى عامر أهل المكارم والمفاخر، قال بالله عليك متى إلى تلك المنازل والأعلام أقرىء ليلى منى كثير السلام، وأعلمها بحالى وما شاهدت من أحوالى وبلغها عنى هذه الابيات وأنشد يقول:

أرى الناس أمامن تجدد وصله ... فغث وأما من خلا فسمين
تخبرنى الأحلام إنى أراكم ... فياليت أحلام المنام يقين
شهدت بأنى لم أخنك مودة ... وإنى بكم حتى الممات ضنين
وإن فؤادى لا يلين إلى هوى ... سواك وإن قالوا بلى سيلين

ثم وثب قائماً على قدميه وأرخى البردة عن منكبيه وصاح صيحة قوية وذهب مع وحوش البرية، فجعلت أخته تبكى وتلطم خدودها وتعض من

شدة الأسف زنودها ، وبكيت أيضاً على صباه وعلى ما أصابه ودهاه ثم ودعتها وجديت فى قطع الهضاب حتى وصلت إلى بنى الحريش قبل الغياب ، فقصدت إلى مضرب كبير وقد حدثتنى نفسى أنه بيت الأمير ، فلما دنوت منه وقفت متفكراً وفى هذا الأمر متحيراً . وإذ قد أقبلت على عجوز من ذلك البيت فقالت من أنت ومن أين أنت فقلت إنى رجل غريب أتيت هذه القبيلة لأجل ليلى خليلة المجنون العاشق المفتون وقد حملنى لها سلاماً وشعراً وكلاماً فهل لك أن تدلينى عليها وترشدينى إليها ، فلما سمعت كلامى قالت أبشر ياوجه العرب ببلوغ الأرب ثم إنها غابت وجاءت بجارية بديعة الجمال كأنها الهلال مسربلة بثوب من الحرير الأحمر وفى عنقها عقد من نفيس الجوهر ، يدهش البصر وعيناها تذرف الدموع وهى تبكى من فؤاد موجوع ، فتقدمت إلى وسلمت على ، وقالت لى أيها الصديق قد بلغنى أنك قد لقيت قيساً فى الطريق فحملك كلاماً تقوله لى فأنى هى ليلى المشئومة عليه والمشتاقة إليه . فبالله عليك حدثنى بحديثه وما كان من أمره ، فأنشدتها ما سمعت من شعره فصارت تبكى وتلطم خدودها وتعض من الأسف على زنودها ، هذا ، والعجوز تلطف بخاطرها وتضمها إلى صدرها وتقبلها فى وجهها ونحرها ، وقد احتارت فى أمرها ، ثم التفتت إلى بعد حين وتنهدت من قلب حزين . وقالت ياصاحب الهمة العلية وكاشف الغمة والبلية إذا اجتمعت به مرة أخرى فى البرية أهده منى جزيل التحية وأنشده هذه الأبيات :

ألا ليت شعرى والخطوب كثيرة متى رحل قيس مستقل فراجع
بنفسى من لا يستقل برحله ومن هو إن لم يحفظ الله ضائع

قال ثم إنها أضافتنى وترحمت بى وأكرمتنى فأقمت عندها ثلاثة أيام فى عز وإكرام ثم استأذنت وانصرفت من حيث أتيت وقد تعجبت مما سمعت ورأيت .

(قال الراوى) وكانت ليلى لا تستطعم بطعام ولا تلتذ بمنام بل تقضى ليلها الطويل بالبكاء والعويل ، وتخاصم نفسها بالملامة وتعض على يديها أسفاً وندامة ، حتى زال نشاطها وحال ، وتمكن منها المرض والبلبال ، وفى كل يوم تزداد عليها الآلام حتى انقطع صوتها عن الكلام ، وشربت كأس الحمام فكفنها

أهلها وواروها التراب وأكثروا عليها الانتحاب ومزقوا ما عليهم من الثياب .

(قال الراوى) فبينما كان يطوف من مكان إلى مكان وهو كثير الهموم والأحزان إذ مر به فارسان فنعياها إليه وقالا قد حكم الله عليها بالموت وهو كأس ليس لأحد منه فوت، لم يسلم منه ملك شديد ولا جبار عنيد ، فعز نفسك الآن وتب إلى العزيز الرحمن ، واستقبل الأحكام بالرضى واستسلم لموارد القضا وقابل عوارض المحن والضير بما قاله كعب بن زهير :

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول

قال فلما سمع منهما ذلك الخطاب أظهر الاكتئاب واستعظم المصاب ، وأخذته الرعدة والاضطراب وغلب عن الصواب وعلا زفيره وشهيقه حتى رق له عدوه وصديقه وأنشد يقول :

أيا ناعيي ليلى بجانب هضبة أما كان ينعاها إلى سواكما
ويا ناعيي ليلى بجانب هضبة فمن بعد ليلى لا أمرت قواكما
ويا ناعيي ليلى لقد هجتما لنا تباريح نوح فى الديار كلاكما
فلا عشتما إلا حليفى مصيبة ولا متما حتى يطول بلاكما
وأسلمت الأيام فيها عجائباً فو تسكما أنى أحب رداكما
أظنكما لا تعلمان مصيبتى لقد حل بين الوصل فيما أراكما

ثم مضى حتى دخل الحى وهو فى غم شديد وحزن ما عليه من مزيد بعد أن كان لا يمر به إلا من بعيد فأتى أهل بيتها فعزاهم وعزوه ، فقال دلونى على قبرها فدلوه ، فلما رآه عظم مصابه ورمى بنفسه عليه . والتزمه من شدة عشقه وجواه وضمه إلى صدره وقد حار فى أمره وأنشأ يقول :

أيا قبر ليلى لو شهدناك أعولت عليك نساء من فصيح ومن عجم
ويا قبر ليلى أكرمن محلها يكن لك ما عشنا علينا به [illegible]
ويا قبر ليلى إن ليلى غريبة بأرضك لا خال لديها ولا عم
ويا قبر ليلى ما تضمنت قبلها شبيهاً لليلى ذا عفاف وذا كرم
ويا قبر ليلى غابت اليوم أمها وخالتها والحافظون لها [illegible]

قال : ثم إنه كان يأوى إلى قبر ليلى ويدور نهاره وليله [illegible] حتى جف جلده على عظمه . وضعفت قوته واشتدت بليته . ثم إن رجلا [illegible] أحب لقاءه ما انظر إليه وإلى ناحية قبره ، قال الرجل فخرجت

أطلبه فى البرارى بعد أن أرشدنى أهله عليه وقد أفهمونى بأن أنشده بعض شعر قيس بن ذريح وذلك ذريعة الدنو منه إلى أن لقيته قاعداً يلعب بالتراب ، فسلمت عليه وجلست منه بمكان قريب ورد على السلام فقلت له ياصاحب الوجه المليح والكلام الفصيح ما أحسن قول قيس بن ذريح حيث يقول :

وأنى لمفن دمع عينى بالبكا حذاراً لما قد كان أو هو كائن
وما كنت أخشى أن تكون منيتى ، بكفى إلا أن ما حان حائن
وقالوا غداً أو بعد ذاك بلية فراق حبيب بان أو هو بائن

قال : فبكى بكاء شديدا وسالت دموعه على خده وأنشأ يقول :

اصفراء فى قلبى من الحب شعبة هوى لم ترمه الغانيات صميم
به حل بيت الحب ثم انثنى به فزالت بيوت الحى وهو مقيم
ومن يتهيض حبهن فؤاده يمت ويعش ما عاش وهو سقيم
فخران صادان يذد عن مشرب وعن بللات الماء وهو يحوم
بكت دارهم من نأيهم فتهللت دموعى فأى الجازعين ألوم
أهذا الذى يبكى من الهون والبلا أم آخر يبكى شجوه ويهيم
إلى الله أشكو حب ليلى كما شكا إلى الله فقد الوالدين يتيم
يتيم جفاه الأقربون فجسمه [illegible] وعهد الوالدين عظيم
[illegible] وقلبى [illegible] قد أجن [illegible]
إذا ذكرت [illegible] كما [illegible]
[illegible] إن كان [illegible] فى طول الزمان [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
وإن [illegible] أفى اليأس [illegible] وهو حبيب

ومنيتني حتى إذا ما رأيتني ... على شرف للناظرين قريب
صددت وأشمت العداة بهجرنا ... أثابك فيما تصنعين مثيب
أبعد عنك النفس والنفس صبة ... بذكرك والممشى إليك قريب
مخافة أن تسعى الوشاة مظنة ... وأكرمكم أن يستريب مريب
أما والذى يبلو السرائر كلها ... ويعلم ما تبدى به وتغيب
لقد كنت ممن تصطفى النفس خلة ... لها دون خلان الصفاء حجوب
وأنى لأستحييك حتى كأنما ... على بظهر الغيب منك رقيب
تلجين حتى يذهب اليأس بالهوى ... وحتى تكاد النفس عنك تطيب
سأستعطف الأيام فيك لعلها ... بيوم سرورى فى هواك تثوب
(وقال) ألا هل طلوع الشمس يهدى تحية ... إلى آل ليلى أو دنو غروبها
اتضرب ليلى إن مررت بذى الغضى ... وما ذنب ليلى إن طوى الأرض ذيبها
أحل على الرجم إن قلت حبذا ... غروب ثنايا أم عمرو وطيبها
(وقال) فياليت ليلى وافقت كل حجة ... قضاء على ليلى وإنى رفيقها
فتجمعنا من نخلتين ثنية ... يعض بأعضاد المطى طريقها
فألقاك عند الركن أو جانب الصفا ... ويشغل عنا أهل مكة سوقها
فأنشدها أن تحوى هون والهوى ... وتمنح نفساً طال مطلا حقوقها

وزاره الأعرابى ثانية بعد انصرافه إلى الحى وقد حدثهم بحديث قيس وما أنشده من شعره فوجده على كثيب من الرمال وهو يخط بأصبعه فيه، فدنا وسلم عليه وقال: أحسن والله قيس بن ذريح حيث يقول:

أراكبدى وعاودنى رواعى ... وكان فراقلنى كالخداع
تكنفنى الوشاة فأزعجونى ... فيالله للواشى المطاع
وأصبحت الغداة ألوم نفسى ... على شىء وليس بمستطاع
كمغبون يعض على يديه ... تبين غبنه بعد البياع
إذا ما تذكرين تحن نفسى ... حنين الألف يضرب للسماع

قال المجنون: بلى والله واستعبر حيناً ثم قال: أنا أشعر منه حيث أقول:

ألا يا نسيم الريح حكمك جائر ... على إذا أرضيتنى ورضيت
أيا نسيم الريح لو أن واحداً ... من الناس يبليه الهوى لبليت

فلو خلط السم الزعاف بريقها　　تمصمصت منه نهلة ورويت

ثم قال إن لم أكن أشعر منه فى هذا فأنا أشعر منه حيث أقول :

وعارض بالعقيان مفلج　　به الظلم لم تقل لهن غروب

رضاب كريح المسك يجلو متونه　　من الضر أو فرخ البشام قضيب

ثم غشى عليه ، فلما أفاق قال أحسن والله قيس بن ذريح حيث يقول :

هبونى امرأ أن تحسنوا فهو شاكر　　لذاك وإن لم تحسنوا فهو صافح

فإن يك أقوام أشاروا بقتلها　　فإن الذى بينى وبينك فاضح

فقال أنا شعر منه حيث أقول :

وأدنيتنى حتى إذا ما فتنتنى　　بقول يحل العصم سهل الأباطح

تجافيت عنى حين لا لى حيلة　　وغادرت ما غادرت بين الجوانح

قال الأعرابى : فلما أتم هذه الأبيات ظهرت له ظبية فتعلق قلبه بها ووثب مسرعاً فى طلبها والتفت إلى وقال : السلام عليك فما أراك ترانى بعد هذا أبداً . قال الهلالى : ثم رجعت إلى الحى وقد احترق قلبى بكى ، فأنشدتهم ما سمعته من شعره فكتبوه وأخبروه ما كان من أمره ، فلما كان من الغد بكرت وطلبته وفتشت عليه فلم أقف له على أثر ، فأخذنى القلق والضجر فانصرفت إلى الحى ، حيث أهله وأعلمتهم بالخبر . فقام إخوته ومن يلوذ من أهله وأقاربه فطلبناه يومنا وليلتنا فى القفار والسهول والأوعار ، فلما أصبحنا هبطنا إلى واد كثير الحجارة والرمل ، وإذا نحن به ملقى ميتاً ، بين حجرين وقد كان خط بأصبعه عند رأسه هذين البيتين :

توسد أحجار المهامه والقفر　　ومات جريح القلب مندمل الصدر

فياليت هذا الحب يعشق مرة　　فيعلم ما يلقى المحب من الهجر

فرثيناه وعلت أصواتنا بالبكاء والنحيب وحملناه إلى الحى فبكى عليه الغريب والقريب وكل صاحب وصديق ومن سمع باسمه يوماً ، وتأسف أبو ليلى عليه وندم على عدم زواجه بليلى غاية الندم وقال والله لقد قابلته بالاستخفاف وعاملته بغير الحق والانصاف ، ثم تقدم إليه وضمه إلى صدره وبكى عليه وبعد ذلك غسلناه وكفناه ودفناه إلى جانب قبر ليلى ، رحمهما الله تعالى . وكان ذلك فى السنة الثمانين من الهجرة المحمدية الموافقة سبعمائة مسيحية ـ